طارق عبد القادر

مجمل تاريخ الجبرتي

نابليون فى مصر

دار الفكر الحديث

طارق عبد القادر

مجمل تاريخ الجبرتى

نابليون فى مصر

الطبعة الأولى

دار الفكر الحديث
١٥ شارع شريف - القاهرة

إنه بسم الله الرحمن الرحيم
وإنه تذكرة لمن يعتبر ولاينأى
هو دليل للمتدبر فيما تبدى
أن ما عند الله خير وأبقى
وأن الظلم إذا تأتى عمت به البلوى
فما كان للناس أن يتظالموا..
إن كان لهم رجحان عقل تبقى

مجمل تاريخ الجبرتى

نابليون فى مصر ..

لماذا . . ؟

التاريخ هو تراث الإنسانية المدون، وهو عبرة للمعتبر وآية للمتفكر، ماض ينبيء بمستقبل وغابر يشير إلى حاضر، فلا يمار فى أهميته عاقل ولايغفل قدره متبصر، والقول الفصل فيه ماقال الشافعى، رضى الله عنه: من علم التاريخ زاد عقله.

لقد قصت الكتب السماوية كثيراً من أحداث التاريخ، فكانت معيناً لايضاهى لما روى فيها، وكانت منبهاً عظيماً على أهمية تدارس الحوادث والمسالك الماضية عبرة وعظة لأولى الألباب المتفكرين فى أحوال العباد وعواقب الأعمال.

وقد قص الله تعالى أخبار الأمم السالفة فى «القرآن الكريم» ببيان معجز وتفصيل حميد، وقال تعالى «نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن» وقال سبحانه «لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب».

وقد حضت آيات القرآن فى غير موضع كريم، عامة المؤمنين وخاصتهم على السير فى الأرض لينظروا الحضارات السالفة ويعتبروا بعاقبة المكذبين الذى نازعوا الجبال فى صلابتهم، وكانوا كالحجارة قسوة أو هم أشد، فلم يغن عنهم من الله شيئاً بما ظلموا، وكذلك هى عاقبة المفسدين.

ومنذ خلق الإنسان وأسكن الأرض، لم تزل الأمم تعتنى بتدوين تاريخها سلفاً عن سلف وخلفاً من بعد خلف، فلا ينفك المؤرخون يخرجون فى جميع الأمم وفى كل الأزمان، يستظهرون الأحداث

ويسجلون النوازل والكائنات، لتتلقاها أجيال ما عاينتها تستخلص منها العبر والدروس.

وإذا كان لكل أمة مؤرخيها ولكل زمان مستحفظيه، فإن للعرب والمسلمين يد طولى فى هذا العطاء، وسبق عظيم فى هذا المضمار، لاينكر عليهم ذلك إلا جاحد أو جهول، فأول المدونات التأريخية إنما ظهرت في مصر وأشور وبابل، وليست نقوش المسلات والمعابد ببعيدة اليوم عن أن يستظهرها أحد، كما أن الأنبياء والمرسلين إنما ظهروا وسط هذه الشعوب ذاتها على مر الأزمان، وفوق هذه البقعة من الأرض نفسها، حيث إنبثقت آشعة العلم والإيمان منطلقة تبدد ظلام الجهل والتخلف فى أدنى وأقصى أرجاء العالم المسكون.

إن العرب لن ينسوا مهما طال الزمان أناساً مثل محمد بن إسحاق أو عبد الملك بن هشام، اللذان أرخا سيرة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، ولن ينسى فى أرض العرب أبداً رجال أفذاذ مثل إبن جرير الطبرى وإبن الأثير وإبن حجر العسقلانى، بتأريخاتهم المتميزة، كما ولن يغفل أبناء هذه الأمة ذكر مؤرخين موهوبين من أمثال المسعودى أو إبن خلكان أو السيوطى.

وإنا إذا إصطفينا تاريخ مصر دون تاريخ كل العرب، وإذا إختصصنا تاريخها الحديث دون الأزمان الغابرة، فإنا نرى مصر والمصريين غير منتهين عن حمل ذلك التقدير الخاص لمؤرخهم المتفرد، الشيخ عبد الرحمن حسن الجبرتى، ذلك الشيخ الذى عاصر فترة من أهم فترات تاريخ مصر الحديث فأشغل نفسه بمراقبة الأحداث والكوائن، وما مل من التدوين والتسجيل لكل واقعة وظل يحلل ويدقق فى كل خطب ونازلة، فأفاد معاصريه ونفع لاحقيه.

وقد صنف الشيخ الجبرتى مؤلفه «**تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار**» الذى أشتهر إختصاراً بتاريخ الجبرتى، مدوناً فيه ما وصل إلى علمه من وقائع سبقت مولده، نقلا عن معلميه وشيوخ العلماء والطاعنين فى السن من الرجال، كما سجل فيه ما عاصره من احداث وكوائن، لعل أهمها وأخطرها أثراً، الحملة الفرنسية على مصر بقيادة الجنرال النابه نابليون بونابرت، الذى سرعان ما عاد إلى بلاده ليصبح إمبراطوراً على فرنسا وغازياً لجميع القارة الأوربية بعد ذلك.

وعلى الرغم مما يأخذه البعض على تاريخ الجبرتى من ركاكة القلم، إلا أن ذلك المصنف يظل فريداً فى عظمته بين كل المؤلفات التاريخية، بما يغطيه من أحداث عميقة الأثر فى حياة الأمة المصرية الحديثة، ولإنفراده بين جميع المؤلفات المتناولة تلك الحقبة من الزمن، بمعاصرة كاتبه لتلك النوازل ورؤيته لها رؤى العين، «وليس من عاين كمن سمع»، وهى حكمة تؤتينا فائدتها فى تلك المشاعر المحسوسة التى تذخر بها سطور الكتاب ناقلة ردود أفعال طبيعية، ساذجة فى بعض الأحيان، تمثل نفوس عاشت وقاست وثارت وإندهشت، لأناس لم يعد لهم وجود.. فسطور الكتاب تنبض بالحياة وإن لم يكن بها ثمة أحياء.

إن مصنف الجبرتى قد يقع بكامله فى عدة مجلدات، وقد سبق نشره مراراً فى ثلاثة مجلدات من القطع الكبير، وهو يمتلىء بين دفتيه بأخبار لاتفيد إلا متخصص أو باحث، وبه كم لابأس به من إحصاءات لمن ولد ولمن وافاه الأجل من الوجهاء والعلماء، وبه متفرقات عن أحوال ومظالم عايشها المصريون على أيدى ولاتهم وعلى أيدى طبقة المماليك بوجه خاص.

ولقد رأينا، تحقيقاً لأقصى فائدة ترتجى، أن نضع مجملا لتاريخ الجبرتى، يخلو مما يحتويه الأصل من تزيد وإطالة، بما ييسر للمطلع المتدبر أن يتبصر ويتدارس دون إشتغال لذهنه بترادفات لفظية أو أحداث فرعية، ولقد ذهبنا إلى أن مجمل تاريخ الجبرتى إنما هو فى مدونته عن الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨م، تلك التى بدأ تأريخها بعام ١٢١٣ من هجرة الرسول الكريم، حيث وجدنا أن تلك الحادثة بالذات هى جوهر ذلك المصنف، وحيث وجدناها بعيدة الأثر إلى الحد الذى كفل لها إثمار كثير من نتائجها بيننا حتى اليوم، وليس هذا بغريب إذا إستحضرت أذهاننا أن فك طلاسم اللغة الهيروغليفية بالعثور على حجر رشيد الشهير، إنما هو أحد نتائج الحملة المذكورة، فكيف كان ليصير إليه شأن السياحة فى مصر لولا هذا الكشف الفريد؟ إن الخيال لايسعفنا بتصور شكل راجح!!

ولقد رأينا فى شأن هذا المجمل أن نعقب على ما جاء فيه بتعليقات مستمدة من دراسات العلماء الفرنسيين أنفسهم، ممن صاحبوا الحملة العسكرية فى مصر، وقد حرصنا إضافة إلى ذلك على أن نعيد صياغة بعض التراكيب اللغوية على شاكلة تؤدى بها إلى حسن التعبير والوفاء بالمراد مع الحفاظ على روح النص وصدق الرواية.

وإنا لنرجوا لهذا الإجتهاد أن يكون محلا لإستحسان القارىء وأن يلقى من المطلعين عليه ثناءاً مشكوراً.

نابليـون بونابـرت

ولد نابليون بونابرت فى جزيرة كورسيكا، التى كانت قد وقعت تحت السيطرة الفرنسية قبل ولادته بزمن يسير، وعلى هذا فقد نشأ الوليد فرنسياً فى جنسيته ولغته، وإن شاب الأخير بعضاً من اللكنة الكورسيكية الشهيرة، حيث ظلت تلازمه حتى آخر أيام حياته الحافلة.

عندما أتم نابليون السادسة عشرة من عمره أرسلته أسرته للإلتحاق بالأكاديمية العسكرية الفرنسية، ومن ثم فلم يلبث أن تخرج ضابطاً بالجيش الفرنسى، ولم يمض وقت على تخرجه إلا وإندلعت الثورة فى جميع أرجاء فرنسا.

كانت عوامل إندلاع الثورة الفرنسية، مثلها فى ذلك مثل كل الثورات العالمية، تتمثل فى أزمة إقتصادية طاحنة تلف فى عباءتها الواسعة طبقات الشعب العديدة والكبيرة العدد فى آن واحد، بينما الترف والفساد يضرب بأجنحته فوق أجواء قصور النبلاء وضياع الأرستقراطيون المترامية الأطراف، وقد بدأت الثورة ببعض المطالب الشعبية، بإصلاحات دستورية يسيرة، ولم يكن يتبادر إلى ذهن الجماهير فى هذا الوقت المبكر، فكرة إسقاط النظام الملكى برمته، لكن رعونة الملك وعدم فطنة المحيطين به سرعان ما أدت إلى تحول مسار الفكر الثورى، لتنادى الجماعات المستثارة بعد ذلك بوجوب إستبدال النظام الملكى والقضاء على أسرة البوربون الحاكمة، فلم يمض ثمة وقت إلا وكانت الجماهير التى تغلب عليها الهستيرة قد إقتحمت سجن الباستيل لتدمره، وإنقضت تأسر الملك والملكة وكل من طالته أياديهم من أمراء ونبلاء، لتقدمهم إلى ساحات الإعدام عقب محاكمات هزيلة الشكل قضى فيها الأمر قبل بحثه.

تسبب عنف الثورة الوليدة وحماسة الفرنسيين لفكرة نقل مبادىء ثورتهم ونظام حكمهم الجمهورى إلى خارج فرنسا لتستظل

به شعوب أخرى، إلى إشتعال الساحة الأوربية التى كانت كل أقطارها حتى هذه اللحظة تحكم بواسطة عروش ملكية، ووجدت بلدان أوربا المحيطة بفرنسا نفسها، وقد دفعت دفعاً إلى خوض غمار حرب ضروس ضد جيوش الثورة الفتية، ومن وسط دخان ساحات المعارك بزغ نجم نابليون، الذى قدر له بعد ذلك أن يقود جيوش فرنسا جميعها فوق الأرض الأوربية جيئة وذهاباً فى معارك متصلة راح ضحيتها مئات الألوف من البشر، نصف مليون من الجيوش الفرنسية وحدها..

كان أول ظهور لنابليون فى معركة «طولون» حيث تمرد هذا الإقليم الفرنسى رافعاً راية العصيان ضد الحكومة المركزية فى «باريس» وسرعان ما فتح هذا الإقليم الساحلى مينائه للأسطول الإنجليزى والسفن الأسبانية المعادية، فأرسلت الحكومة المركزية حملة عسكرية بقيادة الجنرال «ديجوميه» بغرض إعادة السيطرة على الاقليم المتمرد، فحاصرت قوات الحملة «طولون» التى سرعان ما ذاقت مهارة مدفعية نابليون بونابرت، القائد الأول لمدفعية قوات الجنرال «ديجومية».

بعد معركة إسترداد «طولون»، كان طريق الترقى مفتوحاً على مصراعية للقائد الشاب، فسرعان ما أصبح قائداً عاماً للجيش الفرنسى فى إيطاليا، وهناك شهد مسرح العمليات العسكرية إنتصارات باهرة للقائد الجديد فيما بين ١٠ مايو ١٧٩٦ و ١٧ أكتوبر ١٧٩٧، وعندما عاد إلى باريس بعد ذلك كان قد غدا بطلا قومياً لفرنسا كلها وملكاً متوجاً فوق عرش قلب كل فرنسى.

فى سنة ١٧٩٨ قام نابليون بحملة عسكرية على مصر وقد سارت الأمور فى البداية على أحسن مايرام، فإستسلمت جزيرة

مالطة فى ١١ يونيو، ونجح نابليون فى التمويه على الأسطول البريطانى القوى، فلم يعثر عليه حتى وصل شاطىء الإسكندرية فى أول يوليو، ولم يمض على رسو الأسطول الفرنسى ستة أيام إلا وكانت قوات الحملة بقيادة نابليون قد بدأت زحفاً قوياً صوب القاهرة، حيث إلتقت بجيش المماليك المتخلف الشكل والمضمون، والذى جمعت عناصره أشتاتاً كيفما أتفق بلا إعداد أو تسليح، فهزمهم نابليون فى ٢١ يوليه هزيمة ساحقة فى معركة دارت رحاها على مرأى من الأهرام الشامخة فى أرض «إمبابة» التى أطلق إسمها على المعركة فنعتت به.

لم تكن حملة نابليون على مصر مقصوداً منها عمل عسكرى ضد دولة المماليك القائمة فى مصر وقتئذ، كما لم يكن مقصوداً منها الإعتداء على الخلافة العثمانية التى تحكم مصر «ولو بالاسم فقط»، لكن الحملة الفرنسية كانت موجهة لمحاولة النيل من المصالح البريطانية فى الشرق، الهند والصين أساساً، حيث كان الفرنسيون قد فقدوا الأمل تماماً فى النيل من بريطانيا «العدو الأول» بسبب إحتمائها بالبحر وإمتلاكها لأسطول بحرى يصعب التفكير فى قهره، ومن هنا إتجه فكر نابليون الذى كان مازال جنرالا حتى هذه اللحظة إلى محاولة الالتفاف بعيداً عن ضرب الإنجليز مباشرة، ليتولى تحطيم مصالحهم فى الشرق بما يعنيه ذلك من إغلاق الأسواق هناك فى وجه البريطانيين، سواء فى ذلك سوق إمدادهم بالمواد الخام أو سوق تصريف منتجاتهم، ومع الحصار الاقتصادى المفروض فى أوربا الفرنسية على السفن الإنجليزية، فإن ذلك كان من شأنه أن يجعل بريطانيا تجثو مستسلمة خوفاً من الإنهيار الاقتصادى والاجتماعى، وهذا السبب ذاته هو ماجعل الإنجليز أنفسهم لايهدأون بالا إلا بجلاء الفرنسيين عن مصر، وهو السبب نفسه الذى حفزهم - الإنجليز -

إلى غزو مصر بعد ذلك فى عام ١٨٠٧ حيث دمر المصريون حملتهم، ثم عادوا ليحتلوا مصر عام ١٨٨٢ وليظلوا بها طوال سبعين عاماً..

بعد معركة «إمبابة» آلت السلطة فى مصر إلى نابليون بونابرت الذى سرعان ما رتب دواوين ونظم حديثه لتحكم البلاد من خلالها، فكانت هذه أول أشكال للمؤسسات الدستورية فى مصر الحديثة، وسرعان ما إنطلق العلماء المصاحبين للحملة العسكرية يدرسون ويبحثون فى كل ما يقع تحت أياديهم من تلك البلاد الساحرة والرفيعة الحضارة منذ آلاف السنين، فسجلوا بعضاً مما إكتشفوه فى كتاب شهير هو «وصف مصر» وإكتشفوا أسرار اللغة الهيروغليفية بالعثور على حجر رشيد، وقدموا أول الدراسات العلمية فى العصر الحديث لبيان إمكانية حفر قناة تربط بين البحر الأحمر والبحر المتوسط وهو الإنجاز الذى تم بعد ذلك بعشرات السنين (قناة السويس).

لما إستتبت الأمور فى مصر، قام نابليون بحملة عسكرية على الشام، فى عام ١٧٩٩ حيث إستولى على «غزة» دون مقاومة تذكر، ثم إحتل «يافا» بعد حصار طويل، ونكل بمقاتليها المستسلمين إنتقاماً لمقتل مبعوثه إليهم أثناء الحصار، ثم إتجه إلى «عكا» التى تحصنت له، فحاصرها طويلا والإمدادات تأتى أهلها من طريق البحر بواسطة السفن البريطانية والتركية، بينما وباء الطاعون يفتك بجنوده حول الأسوار المنيعة، مما دعاه فى النهاية إلى أن يتخذ قراراً بالإنسحاب إلى مصر فكان هذا أول فشل يلقاه فى حياته العسكرية الحافلة وإن لم يكن الأخير.

أخذت الأخبار تتوراد من أوربا مشيرة إلى تكوين إئتلاف جديد ضد فرنسا التى بدأت تكابد هزائم قاسية، وإزاء الأنباء سرعان ما

إستقر رأى بونابرت على أن مكانه ليس فى مصر وإنما ينبغى فى هذه الظروف أن يكون على أرض وطنه المهدد، فأبحر من الإسكندرية متخفياً فى ٢٣ أغسطس ١٧٩٩تاركاً قوات الحملة فى مصر، فوصل إلى شاطئ «فريجو» الفرنسى فى ٩ أكتوبر بعد أن تعرض لخطر الأسر فى الطريق غير مرة.

وعندما وصل نابليون فرنسا، وجد الناس هناك مازالوا يذكرون إنتصاراته الباهرة فى إيطاليا مستبشرين بقدومه ومتناسين أحداث إغراق إسطوله فى أبى قير بواسطة سفن «نلسون» البريطانى، ومن ثم فلم يلبث إلا وأصبح قنصلا أول مما مهد الطريق أمامه كى يغدو إمبراطوراً بعد حين، حيث توج فى حفل ضخم بكاتدرائية نوتردام بباريس فى ١٨ مايو ١٨٠٤ متناولا التاج من يد «البابا» ليضعه على رأسه بنفسه تفادياً لأية شبهة إعتراف بسيادة أو سلطة باباوية.

ظل نابليون إمبراطوراً على فرنسا لفترة تزيد على عشرة أعوام حفلت بالمعارك القاسية وترددت بين الإنتصارات الباهرة والهزائم السافرة، وقد كانت أكبر سقطاته الإستراتيجية إقدامه على غزو روسيا بستمائة ألف جندى عبر بهم نهر «نيمن» ليلقى مدناً خاوية هلك بها الزرع والضرع، فتعاون الجوع والمرض المتفشى مع المساحة الشاسعة والشتاء الروسى الشهير، ليتكبد بفعل هذه العوامل مجتمعة واحدة من أقسى هزائمه، حيث دخل موسكو وجلس فى قصر الكرملين ولكن القيصر الروسى لم يستسلم ولم يترك له ما يمكن أن يتزود به الجيش الغازى من تموين ووسائل حياة، فألفى نابليون نفسه وقد إحتل أرضاً لاخير فيها ولا رحمة وما زال أمامه أضعاف ما قطع من مسافة وقد ألم البرد والجوع والمرض بقواته فلا سبيل إلى مواصلة الزحف، فإتجه عائداً إلى بلاده حيث كان عدد قتلاه من الجنود المتساقطين عبر طريق الإياب مساوياً لعدد قتلاهم

فى حملة الغزو، أو يزيد، وحيث كانت خسائره عندما بلغ نهر «نيمن» عائداً، قد وصلت إلى مائة وسبعين ألف رجل.

ومثلما كانت غزوة روسيا سقطة مريرة الثمن لنابليون، فإن سقطاته فى سياسة شعوب الأراضى المحتلة كانت سقطة أخرى ألبت عليه تلك الشعوب، التى سرعان ما تحالفت مع روسيا وإنجلترا للقضاء نهائياً على ذلك الإمبراطور المستبد، فتم لها مرادها عقب عدة هزائم ذاقت مرارتها، وإنتهى الأمر بإستسلام باريس وتنازل نابليون عن العرش وتنحية أبنه عن أن يكون خلفاً له، ومن ثم كان أقرب الحلول الموائمة أمام الحلفاء المنتصرين أن تعود أسرة البوربون الملكية لتولى مقاليد الأمور مرة أخرى فى فرنسا بعد غيبة دامت عشرين عاماً، حيث جلس على العرش الملك لويس الثامن عشر ليكون أول ملك من أسرة البوربون يحكم فرنسا منذ قيام الثورة الفرنسية وإعدام شقيقه الملك لويس السادس عشر عام ١٧٩٣.

وقد تم نفى نابليون بونابرت إلى جزيرة «إلبا» حيث سمح له بإستعمال لقب «الإمبراطور» وتعين له بلاط وحرس شرف ظل يستعرضه يومياً، حيث سئم يوماً هذا السخف وقرر أن يعود إلى فرنسا على رأس قوة صغيرة فى ملحمة أسطورية، تكاد تختلط فى وقائعها مع الخيالات المسرحية، فقد إنضمت إليه كل الجماهير التى سمعت بعودته ورافقتها بنفس الروح والحماسة القوات العسكرية التى كانت قد أرسلت للقبض عليه، وسرعان ما عاد ليجلس على عرشه من جديد وسط حماس الفرنسيين وإندهاش كل أمراء أوربا وملوكها، بينما سار آل البوربون يغذون السير هرباً من فرنسا كلها مرة أخرى، وكان المشهد جميعه من تلك المشاهد التى يختلط فيها الخيال بالواقع فينوء عن حمله المنطق.

لكن حكم نابليون لفرنسا هذه المرة لم يدم طويلا ، فسرعان ما إندلعت الحرب مرة أخرى لتنتهى بمعركة «واترلو» فى ١٨ يونيه ١٨١٥، حيث لقى نابليون هزيمته الأخيرة على أيدى الجيش الإنجليزى بقيادة «ولينجتون» والجيش البروسى الألمانى تحت قيادة الجنرال «بلوخر».

وفى ٣ يوليه من عام ١٨١٥ إستسلمت باريس ولم ينقض يوم ٩ يوليو حتى إستسلم نابليون فأرسله المنتصرون إلى منفاه فى جزيرة سانت هيلانة الواقعة فى جنوب المحيط الأطلنطى، حيث مات ميتة مشتبه فيها فى سنة ١٨٢١.

مجمل تاريخ الجبرتى

نابليــون فى مصــر

بداية الحملة وحصول الغزوة
وترادف النزوة بعظيم البلوى

في يوم الأحد العاشر من شهر المحرم سنة ١٢١٣ من هجرة الرسول الكريم، وردت مكاتبات على يد السعاة من ثغر الإسكندرية، ومضمونها أنه فى يوم الخميس ثامنه حضر إلى الثغر عشرة مراكب من مراكب الإنجليز، ووقفت على البعد بحيث يراها أهل الثغر، وبعد قليل حضر خمسة عشر مركباً أخرى فإنتظر أهل الثغر ما يريدون، وإذا بقارب صغير واصل من عندهم وفيه عشرة أنفار فوصلوا البر وإجتمعوا بكبار البلد، والرئيس إذ ذاك فيها والمشار إليه بالإبرام والنقض السيد محمد كريم، فكلموهم وإستخبروهم عن غرضهم، فأخبروا أنهم إنجليز حضروا للتفتيش على الفرنسيس لأنهم خرجوا بعمارة وأسطول ضخم يريدون جهة من الجهات، ولا ندرى أين قصدهم، فربما دهموكم فلا تقدرون على دفعهم ولا تتمكنوا من منعهم.

فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول، وظن أنها مكيدة، وجاوبوهم بكلام خشن، فقالت رسل الإنجليز: نحن نقف بمراكبنا فى البحر محافظين على الثغر، لا نحتاج منكم إلا الإمداد بالماء والزاد بثمنهما، فلم يجيبهم الناس لذلك، وقالوا هذه بلاد السلطان، وليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل، فأذهبوا عنا.

فعندها عادت رسل الإنجليز، وأقلعوا فى البحر ليمتاروا من غير الإسكندرية، وليقضى الله أمراً كان مفعولا، ثم إن أهل الثغر أرسلوا يجمعون عربان البحيرة والصحارى الغربية ليحافظوا بالثغر.

فلما قرئت هذه المكاتبات بمصر حصل اللغط العظيم من الناس وتحدثوا بذلك فى مجالسهم وكثرت المقالات والأراجيف، ثم وردت بعد ذلك بيومين مكاتبات مضمونها أن المراكب التى وردت الثغر عادت راجعة، فإطمأن الناس وسكن القيل والقال.

وأما الأمراء فلم يهتموا بشيء من ذلك ولم يكترثوا به إعتماداً على قوتهم، وزعمهم أنه إذا جاءت جميع الإفرنج لايقفون فى مقابلتهم وانهم يدوسونهم بخيولهم فى ساعة.

فلما كان يوم الاربعاء العشرون من الشهر المذكور، وردت مكاتبات من الثغر ومن رشيد ودمنهور، بأنه فى يوم الإثنين ثامن عشره وردت مراكب وعمارات للفرنسيس كثيرة، فأرسوا فى البحر وأرسلوا جماعة يطلبون القنصل وبعض أهل البلد، فلما نزلوا إليهم عوقوهم عندهم، فلما دخل الليل تحولت منهم مراكب إلى جهة العجمى، وطلعوا إلى البر ومعهم آلات الحرب والعساكر، فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم كالجراد المنتشر حول البلد، فعندها خرج أهل الثغر وما إنضم إليهم من العربان المجتمعة، فلم يستطيعوا مدافعتهم ولا أمكنهم ممانعتهم، ولم يثبتوا لحربهم، وإنهزم العربان ومن والاهم، ودخلت الإفرنج البلد وإنبثوا فيها كثيرى العدد، كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمى يدافعون وعن أنفسهم وأهليهم يقاتلون.

فلما أعياهم الحال، وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال، وليس عندهم للحرب إستعداد، لخلو الأبراج من آلات الحرب والعتاد، طلب أهل الثغر الأمان، وأن يرفع عنهم القتال، فأمنوهم، ومن حصونهم أنزلوهم، ونادى الفرنسيس بالأمان فى البلد ورفعوا رايتهم عليها، وطلب قائدهم أعيان الثغر فحضروا بين يديه، فألزمهم بجمع السلاح وإحضاره إليه، وأن يضعوا «الجوكار» فى صدورهم فوق ملبوسهم، والجوكار ثلاث قطع من جوخ أو حرير أو غير ذلك مستديرة فى قدر الريال، سوداء وحمراء وبيضاء، توضع بعضها فوق بعض بحيث تكون كل دائرة أقل من التى تحتها حتى تظهر الألوان الثلاثة كالدوائر المحيط بعضها ببعض.

ولما وردت هذه الأخبار مصر حصل للناس إنزعاج، وعول أكثرهم على الفرار والهجاج.

وأما ما كان من حال الأمراء المماليك، فإن إبراهيم بك ركب إلى قصر العينى، وحضر عنده مراد بك من الجيزة لأنه كان مقيما بها، وإجتمع باقى الأمراء والعلماء والقاضى، وتكلموا فى شأن هذا الأمر، فإتفق رأيهم على أن يرسلوا مكاتبة بخبر هذا الحادث إلى إسلامبول، وأن مراد بك يجهز العساكر ويخرج لملاقاة الفرنسيس وحربهم، وإنفض المجلس على ذلك.

وفى يوم الإثنين وردت الأخبار بأن الفرنسيس وصلوا إلى دمنهور ورشيد، وخرج معظم أهل تلك البلاد على وجوههم، فذهبوا إلى «فوة» ونواحيها والبعض طلب الأمان وأقام ببلده، وهم العقلاء.

وقد كانت الفرنسيس حين حلولهم بالإسكندرية، كتبوا مرسوماً وطبعوه، وأرسلوا منه نسخاً إلى البلاد التى يقدمون عليها تطميناً لأهلها، وصورة ذلك المكتوب:

(بسم الله الرحمن الرحيم. لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه. من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته، يعرف أهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية، يتعاملون بالذل والإحتقار فى حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدى.

فحضرت الآن ساعة عقابهم وقد أخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة من المماليك المجلوبين من بلاد الأباظة والجراكسة، يفسدون فى الإقليم الحسن الأحسن، الذى لايوجد «مثله» فى كرة الأرض كلها.

فأما رب العالمين القادر على كل شئ، فإنه قد حكم بانقضاء دولتهم.

يا أيها المصريون، قد قيل لكم إننى مانزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين أننى ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وإننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى، وأحترم نبيه والقرآن العظيم، وقولوا أيضاً لهم أن جميع الناس متساوون عند الله، وأن الشئ الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم، ويختصوا بكل شئ أحسن فيها، من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة، فإن كانت الأرض المصرية إلتزاماً للمماليك، فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم، ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم، وبعونه تعالى من الآن فصاعداً لاييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية، وعن إكتساب المراتب العالية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور، وبذلك يصلح حال الأمة كلها.

وسابقاً كان فى الأراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر، وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك.

أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلد، قولوا لأمتكم أن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا، الذى كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكاوللرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين.

ومع ذلك فإن الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات ظلوا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى، وأعداء أعدائه أدام الله ملكه، وإن المماليك إمتنعوا من إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره، فما أطاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم.

طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير، فيصلح حالهم وتعلوا مراتبهم، طوبى أيضاً للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين، فإذا عرفونا بالأكثر، تسارعوا إلينا بكل قلب، لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا، فلايجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص ولايبقى منهم أثر.

المادة الأولى : جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات من المواضع التى يمر بها عسكر الفرنساوية، فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء، كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذى هو أبيض وكحلى وأحمر.

المادة الثانية : كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار.

المادة الثالثة : كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى أيضاً تنصب صنجاق السلطان العثمانى محبنا دام بقاؤه.

المادة الرابعة : المشايخ فى كل بلد يختمون حالا جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التى تتبع المماليك، وعليهم الإجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شئ منها.

المادة الخامسة : الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم، وعلى كل واحد من أهالى البلدان

أن يبقى فى مسكنه مطمئناً، وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة، والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لإنقضاء دولة المماليك، قائلين بصوت عالى: أدام الله إجلال السلطان العثمانى، أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى، لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية..

تحريراً بمعسكر إسكندرية فى ١٣ شهر «سيدور» من السنة الخامسة لإقامة الجمهور الفرنساوى، يعنى فى آخر شهر المحرم سنة ١٢١٣ هجرية).

ولما أستهل شهر صفر، بيوم الأحد غرته، وردت الأخبار بأنه فى يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر محرم، إلتقى العسكر المصرى مع الفرنسيس فلم تكن إلا ساعة وإنهزم مراد بك ومن معه، فلما وصلت الأخبار بذلك إلى مصر إشتد إنزعاج الناس، وركب إبراهيم بك إلى ساحل بولاق وحضر الباشا (الوالى) والعلماء ورؤوس الناس، وأعملوا رأيهم فى هذا الحادث العظيم، فإتفق رأيهم على عمل متاريس من بولاق إلى شبرا، ويتولى الإقامة ببولاق إبراهيم بك وأتباعه، وقد كانت العلماء بدأت تجتمع بالأزهر كل يوم، يقرأون البخارى وغيره من الدعوات، وكذلك مشايخ فقراء الأحمدية والرفاعية والبراهمة والقادرية والسعدية وغيرهم من الطوائف وأرباب الأشاير، يعملون لهم مَجالس بالأزهر يذكرون فيها الإسم اللطيف وغيره من الأسماء، توسلا بها إبتغاء الخلاص.

وفى يوم الإثنين حضر مراد بك إلى بر إنبابة، وشرع فى عمل المتاريس هناك ممتدة إلى بشتيل، وتولى ذلك هو وأمراؤه وأتباعه، وأحضروا المراكب الكبار والصغار، وأوقفوها على ساحل إنبابة مشحونة بالعساكر والمدافع، فصار البر الغربى والشرقى غاصين

بالمدافع والعساكر والمتاريس والخيالة والمشاة، ومع ذلك فقلوب الأمراء لم تطمئن بذلك، فإنهم من حين وصول الخبر من الإسكندرية شرعوا فى نقل أمتعتهم من البيوت الكبار المشهورة إلى البيوت الصغار النكراء التى لايعرفها أحد، وإستمروا طوال الليالى ينقلون الأمتعة ويوزعونها عند معارفهم وثقاتهم، وأرسلوا البعض منها لبلاد الأرياف، وأخذوا فى تشهيل الأحمال وإستحضار الدواب وأدوات الإرتحال، فلما رأى أهل البلدة منهم ذلك، داخلهم الخوف العظيم والفزع الرهيب، وإستعد الأغنياء وأولوا المقدرة للهروب من الفرق، فلولا أن الأمراء منعوهم وهددوهم لما بقى بمصر منهم أحد.

وفى يوم الثلاثاء نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس، وكرروا المناداة بذلك فى كل يوم، فأغلق الناس الدكاكين والأسواق، وخرج الجميع إلى بر بولاق.

وكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات تجمع الدراهم من بعضها البعض، وتنصب لأهلها خياماً أو يجلسون فى مكان خرب، ويرتبون لأنفسهم ما ينصرف عليهم، وبعض الناس تطوع بالإنفاق على البعض الآخر، ومنهم من جهز جماعة من المغاربة والشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك، بحيث أن الجميع بذلوا وسعهم وفعلوا طاقتهم، وسمحت نفوسهم بإنفاق المال فلم يشح أحد بشىء يملكه، وخرجت الفقراء وأرباب الأشاير بالطبول والزمور والأعلام وهم يضجون ويصيحون ويذكرون بأذكار مختلفة، وصعد السيد عمر أفندى مكرم نقيب الأشراف إلى القلعة، فأنزل منها بيرقاً كبيراً عبارة عن راية عظيمة الحجم، سمتها العامة «البيرق النبوى» فنشرها بين يديه طول الطريق من القلعة حتى وصل بولاق، وأمامه وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصى، يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والمزامير وغير ذلك.

وأما مصر فإنها بقيت خالية الطرقات، لايقطنها أحد سوى النساء والصغار وضعاف الرجال الذين لايقدرون على سير أو حراك، وغدت الأسواق مصفرة والطرق مجفرة من عدم الكنس والرش، وغلا سعر البارود والرصاص وجنس أنواع السلاح، وعز وجوده، فخرج معظم الرعايا بالنبابيت والعصى، وجلس المشايخ بزاوية على بك ببولاق يدعون ويبتهلون إلى الله بالنصر المبين.

وأما بلاد الأرياف فإنها قامت على ساق، يقتل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم بعضاً، وكذلك العربان أغارت على الأطراف والنواحى، وصار قطر مصر كله من أوله إلى آخره فى قتل ونهب وقطع طريق، وقيام شر على المال والنفس، وإفساد زرع وغير ذلك من ألوان الفساد مما لايحصى ولايعد.

ثم أنه فى كل يوم تكثر الإشاعة بقرب الفرنسيس من مصر، وتختلف الناس فى تحديد الجهة التى يأتون منها، فمنهم من يقول أنهم واصلون من البر الغربى، ومنهم من يقول: بل يأتون من الشرقى، ومنهم القائل بأنهم يأتون من البرين معاً، هذا وليس لأحد من أمراء العساكر همة أن يبعث جاسوساً أو طليعة تناوش القادمين بالقتال قبل أن يدهموا الجالسين، بل كل من إبراهيم بك ومراد بك جمع عسكره حوله ومكث مكانه لاينتقل عنه، ينتظران ما تفعله بهما الأقدار وليس ثمة قلعة ولا حصن ولا معقل، وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو.

ولما كان يوم الجمعة سادس الشهر، وصل الفرنسيس إلى الجسر الأسود، وأصبح يوم السبت فواصلوا إلى «أم دينار» فعندها إجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر، ولكن الأجناد متنافرة قلوبهم، منحلة عزائمهم، مختلفة آراؤهم، حريصون على حيواتهم، مختالون فى رئيسهم، مغترون بجمعهم،

محتقرون شأن عدوهم، مرتبكون فى رويتهم، مغمورون فى غفلتهم، وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم، وقد كان الظن بالفرنسيس أن يأتوا من البرين، فلم يأتوا إلا من البر الغربى، فلما قرب طابورهم من متاريس مراد بك، ترامى الفريقان بالمدافع، فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقى أصوات المدافع ودخان البارود، ضج العامة والغوغاء من الرعية وأخلاط الناس بالصياح ورفع الأصوات بقولهم يارب ويا لطيف ويا رجال الله، ونحو ذلك، وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم، فكان العقلاء من الناس، يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك، ويقولون لهم أن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لابرفع الأصوات والصــراخ والنباح، فلا يستمعون ولايرجعون عمــا هم فيـه.

ثم إن الطابور الذى تقدم لقتال مراد بك، إنقسم على كيفية معلومة عندهم فى الحرب، وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطاً بالعسكر من خلفه وأمامه، ودق طبوله وأرسل بنادقه المتتالية والمدافع، وإشتد هبوب الريح وإنعقد الغبار وأظلمت الدنيا بدخان البارود وغبار الرياح، وصمت الأسماع من توالى الضرب، بحيث خيل للناس أن الأرض تزلزلت والسماء عليها سقطت.

وإستمر القتال نحو ثلاثة أرباع الساعة، ثم كانت الهزيمة على عسكر البر الغربى، وغرق كثير من الخيالة فى بحر النيل لإحاطة العدو بهم وظلام الدنيا، والبعض وقع أسيراً فى أيدى الفرنسيس الذين ملكوا المتاريس.

وفر مراد بك ومن معه من خاصته إلى الجيزة، فصعد إلى قصره وقضى بعض أشغاله فى نحو ربع الساعة، ثم ركب وذهب إلى الجهة القبلية..

ولما إنهزم المعسكر الغربى، حول الفرنسيس المدافع والبنادق على البر الشرقى وضربوها، فتحقق أهل البر المذكور من الهزيمة وقامت فيهم ضجة عظيمة، وركب فى الحال إبراهيم بك والباشا الوالى والأمراء والعسكر والرعايا، وتركوا جميع الأثقال والخيام كما هى، لم يأخذوا منها شيئاً.

فأما إبراهيم بك والباشا والأمراء، فساروا إلى جهة العادلية، وأما الرعايا فهاجوا وماجوا ذاهبين إلى جهة المدينة، فدخلوها أفواجاً أفواجاً، وهم جميعاً فى غاية الخوف والفزع وترقب الهلاك، يضجون بالعويل والنحيب، ويبتهلون إلى الله من شر هذا اليوم العصيب، والنساء يصرخن بأعلى أصواتهن من البيوت، وقد كان ذلك قبل الغروب.

ولما إستقر إبراهيم بك بالعادلية، أرسل يأخذ حريمه، وكذلك فعل من كان معه من الأمراء، فأركبوا النساء بعضهن على الخيول وبعضهن على البغال، والبعض على الحمير والجمال، وإستمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر، البعض بحريمه والبعض ينجو بنفسه، ولا يسأل أحد عن أحد، بل كل فى شغل بنفسه عن أبيه وإبنه، فخرج تلك الليلة معظم أهل مصر، البعض لبلاد الصعيد والبعض لجهة الشرق، وهم الأكثر.

وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه أو غير قادر مكره، والناس عامتهم وخاصتهم إشتد زعرهم وتحركت عزائمهم للهروب، وكان حال الجميع الحيرة، لايدرون أى جهة يسلكون ولا أى طريق يستقبلون، فتلاحقوا وتسابقوا، وخرجوا من كل حدب ينسلون، وبيع الحمار الأعرج أو البغل الضعيف بأضعاف ثمنه، وخرج أكثر الناس ماشياً حاملا متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها، ومن قدر

على مركوب أركب زوجته أو إبنته، ومشى هو على قدميه، وخرجت غالب النساء ماشيات حاسرات، وأطفالهن على أكتافهن يبكين فى ظلمة الليل، وإستمروا على ذلك بطول ليلة الأحد وصبحها، وأخذ كل إنسان ما قدر على حمله من مال ومتاع، فلما خرجوا من أبواب البلد وتوسطوا الفلاة، تلقتهم العربان والفلاحون، فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم، بحيث لم يتركوا لمن صادفوه مايستر به عورته أو يسد له جوعته، فكان ما أخذته العربان شيئاً كثيراً يفوق الحصر، حيث أن الأموال والذخائر التى خرجت من مصر فى تلك الليلة أضعاف مابقى فيها بغير شك، فذهب ذلك جميعه، وكانت ليلة وصباحها فى غاية الشناعة، جرى فيها مالم يتفق أن سمع به فى تواريخ المتقدمين.

ولما أصبح يوم الأحد المذكور، والمقيمون لايدرون مايفعل بهم، متوقعون حلول الفرنسيس ووقوع المكروه، إجتمع فى الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا، فإتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة إلى الإفرنج وينتظروا ما يكون من جوابهم، ففعلوا ذلك وأرسلوها صحبة شخص مغربى يعرف لغة الفرنسيس وآخر صحبته، فغابا وعادا فأخبرا أنهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة، فقرأها عليه ترجمانه، ومضمونها الإستفهام عن قصدهم، فقال على لسان الترجمان : (وأين عظماؤكم ومشايخكم؟ لم تأخروا عن الحضور إلينا لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة). وطمأنهم وبش فى وجوههم، فقالوا: نريد أماناً منكم. فقال: أرسلنا لكم سابقاً - يعنى الكتاب المذكور فيما تقدم - فقالوا: نريده أيضاً لأجل إطمئنان الناس، فكتبوا لهم ورقة أخرى مضمونها: (من معسكر الجيزة خطاباً إلى أهل مصر، إننا أرسلنا لكم فى السابق كتاباً فيه الكفاية،

وذكرنا لكم أننا ماحضرنا إلا بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والإحتقار وأخذ مال التجار ومال السلطان، ولما حضرنا إلى البر الغربى خرجوا إلينا، فقابلناهم بما يستحقونه وقتلنا بعضهم وأسرنا بعضهم، ونحن فى طلبهم حتى لانبق أحد منهم بالقطر المصرى، وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات والرعية، فيكونوا مطمئنين وفى مساكنهم مرتاحين، إلى آخر ما سبق وذكرته» ثم قال لهم: «لابد أن المشايخ والشربجية يأتون إلينا لنرتب لهم ديواناً ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الأمور».

ولما رجع الجواب بذلك إطمأن الناس وركب الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى وآخرون إلى الجيزة، فتلقاهم بونابارته الكبير ضاحكاً لهم وقال: أنتم المشايخ الكبار!! فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا، فقال: «لأى شيء يهربون؟! أكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديواناً لأجل راحتكم وراحة الرعية وإجراء الشريعة». فكتبوا منه عدة مكاتبات بالحضور والأمان، ثم إنفصل المشايخ من معسكر الفرنسيس عائدين إلى مصر، وكان ذلك بعد العشاء، فإطمأن الناس برجوعهم سالمين وكانوا فى وجل وخوف على غيابهم، فلما أصبحوا أرسلوا الأمان إلى المشايخ الكبار، فحضر الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى ومن إنضم إليهم من الناس الفارين من ناحية المطرية، وأما عمر أفندى مكرم نقيب الأشراف، فإنه لم يطمئن ولم يحضر، وفى ذلك اليوم إجتمعت الجعيدية وأوباش الناس ونهبوا بيت إبراهيم بك وبيت مراد بك وأحرقوهما، ونهبوا أيضاً عدة بيوت من بيوت الأمراء وأخذوا ما فيها من فرش ونحاس وأمتعة وغير ذلك، ثم باعوه بأبخس الأثمان.

وفى يوم الثلاثاء، عدت الفرنساوية إلى بر مصر، وسكن بونابارته بيت محمد بك الألفى بالأزبكية، الذى أنشأه الأمير المذكور فى السنة السابقة وزخرفه وصرف عليه أموالا عظيمة وفرشه بالفرش الفاخرة، وعند تمامه وسكناه فيه، وقعت هذه الحادثة، فأخلوه وتركوه بما فيه، فكأنه إنما كان يبينه لأمير الفرنسيس..

الطـــرز الفرنســـاوية
والأهالى المصـــرية ..

لما عدى كبير الفرنسيس بونابارته وسكن بالأزبكية كما ذكر، إستمر غالب الفرنساوية بالبر الآخر، ولم يدخل المدينة إلا القليل منهم، ومشوا فى الأسواق من غير سلاح وصاروا يضاحكون الناس ويشترون ما يحتاجون إليه بأغلى ثمن، فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطى صاحبها «زيال فرانسة» ثمناً لها، ويأخذ البيضة «بنصف فضة» قياساً على أسعار بلادهم وأثمان بضائعهم. فلما رأى منهم العامة ذلك، أنسوا بهم وأطمأنوا لهم، وخرجوا إليهم بالكعك وانواع الفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات وغير ذلك مثل السكر والصابون والدخان والبن، وصاروا يبيعون عليهم بما أحبوا من الأسعار، وفتح غالب السوقة الحوانيت والقهاوى.

وفى يوم الخميس ثالث عشر صفر، أرسلوا بطلب المشايخ والوجهاء عند قائمقام صارى عسكر بونابارته، فلما إستقر بهم الجلوس خاطبوهم وتشاوروا معهم فى تعيين عشرة أنفار من المشايخ للديوان وفصل الحكومات، فوقع الإتفاق على الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المهدى والشيخ موسى السرسى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ أحمد العريشى والشيخ يوسف الشبرخيتى والشيخ محمد الدواخلى.

ثم إن عساكر الفرنسيس صارت تدخل المدينة شيئاً فشيئاً حتى إمتلأت بهم الطرقات وسكنوا فى البيوت، لكنهم لم يشوشوا على أحد، وكانوا يأخذون المشتروات بزيادة عن ثمنها، ففجر السوقة وصغروا أقراص الخبز وطحنوه بترابه، وفتح الناس عدة دكاكين بجوار مساكنهم يبيعون فيها أصناف المأكولات مثل الفطير والكعك والسمك المقلى واللحوم والفراخ المحمرة وغير ذلك، وفتح نصارى الأروام عدة دكاكين لبيع أنواع الأشربة والخمور وقهاوى.

وفتح بعض الإفرنج البلديين بيوتاً يصنع فيها أنواع الأطعمة والأشربة على طرائقهم فى بلادهم، فيشترى الأغنام والدجاج والخضروات والأسماك والعسل والسكر وجميع اللوازم، ويطبخه الطباخون ويصنعون أنواع الأطعمة والحلوى، ويعمل على بابه علامة لذلك يعرفونها بينهم، فإذا مرت طائفة بذلك المكان تريد الأكل، دخلوا إليه، وهو يشتمل على عدة مجالس، دون وأعلى، وعلى كل مجلس علامته ومقدار الدراهم التى يدفعها الداخل فيه، فيدخلون إلى مايريدون من المجالس، وفى وسطه دكة من الخشب، وهى الخوان التى يوضع عليها الطعام وحولها كراسى، فيجلسون عليها ويأتيهم الفراشون بالطعام على قوانينهم، فيأكلون ويشربون على نسق لايتعدونه، وبعد فراغ حاجتهم يدفعون ما وجب عليهم من غير نقص ولا زيادة، ويذهبون لحالهم.

ثم إن الفرنسيس شرعوا فى تكسير أبواب الدروب والبوابات النافذة، وخرج عدة من عساكرهم يخلعون ويقلعون أبواب الدروب والعطف والحارات، فإستمروا على ذلك عدة أيام وداخل الناس من ذلك وهم وخوف شديد، وظنوا ظنوناً وحصل عندهم فساد مخيلة ووسوسة تجسمت فى نفوسهم بألفاظ نطقوا بها وتصوروا حقيقتها وتناقلوها فيما بينهم، كقولهم أن عساكر الفرنسيس عازمون على قتل المسلمين وهم فى صلاة الجمعة، ومنهم من يقول غير ذلك، هذا بعد أن كان حصل عندهم بعض إطمئنان، وفتحوا بعض الدكاكين، فلما حصلت هاتان النكتتان إنكمش الناس ثانية وإرتجفت قلوبهم.

واستهل شهر ربيع الأول سنة ١٢١٣ وفيه تواترت الأخبار بحضور عدة مراكب من الإنجليز إلى ثغر الإسكندرية، وأنهم حاربوا مراكب الفرنساوية الراسية بالمينا، وكانت هذه الأخبار قد أشيعت وتحدث بها الناس، فصعب ذلك على الفرنساوية، وأتفق أن بعض

نصارى الشوام نقل عن رجل من الأشراف يسمى السيد أحمد الزر، وكان من أعيان التجار بوكالة الصابون، أنه تحدث بذلك، فأمر الفرنسيس بإحضاره وذكروا له ذلك، فقال: أنا حكيت ما سمعته من فلان النصرانى، فأحضروه أيضاً وأمروا بقطع لسانيهما أو يدفع كل واحد منهما مائة ريال فرانسة، نكالا لهما وزجراً لأمثالهما عن الفضول فيما لايعنيهم، فتشفع المشايخ فلم يقبلوا شفاعتهم، فقال بعض الحضور: أطلقوهما ونحن نأتيكم بالدراهم، فلم يرضوا، فأرسل الشيخ مصطفى الصاوى وأحضر مائتى ريال ودفعها فى الحضرة، فلما قبضها الوكيل ردها ثانية إليه وقال: فرقها على الفقراء. وإنكف الناس عن التكلم فى شأن ذلك..

والواقع أن الانجليز حضروا فى أثر الفرنسيس إلى الثغر، وحاربوا مراكبهم فنالوا منهم وأحرقوا المركب الكبير المسمى «نصف الدنيا» وكان به أموالهم وذخائرهم، وكان مصفحاً بالنحاس الأصفر.

ثم إن كبير الفرنسيس صارى عسكر بونابارته سأل عن المولد النبوى ولماذا لم يعملوه كعادتهم، فإعتذر الشيخ البكرى بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال، فلم يقبل عذره صارى عسكر وقال: لابد من ذلك، وأعطى له ثلاثمائة «ريال فرنسا» معاونة، وأمر بتعليق الزينات والقناديل وإجتمع الفرنساوية يوم المولد وضربوا طبولهم، وأرسلت الطبلخانة الكبيرة إلى بيت الشيخ البكرى وإستمروا يضربونها بطول النهار والليل، والطبلخانة عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات، ثم عمل الفرنسيس فى الليل حراقة نفوط وصواريخ تصعد فى الهواء، وفى ذلك اليوم ألبس الشيخ خليل البكرى فروة وتقلد نقابة الأشراف، ونودى فى المدينة بأن كل من كانت له دعوى على شريف فليرفعها إلى النقيب.

وفى العشرين من ذلك الشهر طلب صارى عسكر بونابارته المشايخ، فلما إستقروا عنده نهض بونابارته من المجلس ورجع وبيده طيلسانات(١) ملونة بثلاثة ألوان، كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض وأحمر وكحلى، فوضع منها واحداً على كتف الشيخ الشرقاوى، فرمى به إلى الأرض وإستعفى وتغير مزاجه وامتقع لونه وإحتد طبعه، فقال الترجمان: يامشايخ أنتم صرتم أحباباً لصارى عسكر وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته، فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة فى قلوبهم، فقالوا له: لكن قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا من المسلمين، فإغتاظ بونابارته لذلك وتكلم بلسانه وبلغ عنه بعض المترجمين أنه قال عن الشيخ الشرقاوى إنه لايصلح للرياسة ونحو ذلك، فلاطفه بقية الجماعة وإستعفوه من ذلك، فقال: إن لم يكن ذلك، فلازم من وضعكم الجوكار(٢) فى صدروكم. فقالوا: أمهلنا حتى نتروى فى ذلك، وإتفقوا على إثنى عشر يوماً. وفى ذلك الوقت حضر الشيخ السادات بإستدعاء، فصادفهم منصرفين، فلما إستقر به الجلوس بش له صارى عسكر وضاحكه ولاطفه فى القول، وأهدى له خاتم ألماس وكلفه الحضور فى الغد عنده وأحضر له جوكار ثبته فوق ملابسه، فسكت الشيخ وسايره وقام وإنصرف، فلما خرج من عنده إجتهد الرأى أن ذلك لايخل بالدين.

---

(١) الطيلسان : شريط يوضع على الكتف محيطاً به ويلتقى طرفيه عند الخصر فى الجهة العكسية للكتف المذكور، وهو يشبه إلى حد كبير «الوشاح».

(٢) الجوكار : ثلاث قطع من قماش، مستديرة ولكل منها لون، سوداء وحمراء وبيضاء، توضع بعضها فوق بعض بحيث تكون كل دائرة أقل من التى تحتها حتى تظهر الألوان الثلاثة كالدوائر المحيط بعضها ببعض.

وفى ذلك اليوم نودى على الناس بوضع العلامات المذكورة، دليلا على الطاعة والمحبة، فأنف غالب الناس من وضعها وبعضهم رأى أن ذلك لايخل بالدين إذ هو مكره، وربما ترتب على عدم الإمتثال الضرر، فوضعها. ثم فى عصر ذلك اليوم، نادوا بإبطالها من العامة وألزموا الأعيان والداخلين عليهم بوضعها، فكان الناس يضعونها إذا حضروا عندهم ويرفعونهاإذا إنفصلوا عنهم، وإستمر ذلك أيام إلي أن تركت.

ثم إن الفرنسيس شرعوا فى ترتيب ديوان سموه محكمة القضايا، فوضوا إليه الفصل فى أمور التجار والعامة، والمواريث والدعاوى. وجعلوا لذلك الديوان قواعد وأركان من بدع آخر الزمان، محصلها التحيل على أخذ الأموال، كفرضهم على أصحاب الأملاك أن يثبتوها فى السجلات، ويدفع على ذلك أقدار مرتبة من الدراهم فإن لم تثبت الأملاك وخلت منها الدفاتر والسجلات، فإنها تضبط لديوان الجمهور العام وتنزع من أيدى أصحابها بلا كلام، ومن جملة الشروط مقررات على المواريث والموتى ومقاديرها متنوعة فى القلة والكثرة، كقولهم إذا مات الميت يشاورون عليه ويدفعون معلوماً لذلك، ويفتحون تركته بعد أربع وعشرين ساعة، فإذا بقيت أكثر من ذلك ضبطت للديوان أيضاً ولا حقوق للورثة فيها، كذلك من إدعى ديناً على الميت يثبته بديوان الحشريات ويدفع على إثباته مقرراً ويأخذ به ورقة يستلم بها دينه، فإذا إستلمه دفع مقرراً أيضاً، ومثل ذلك فى الرزق والأطيان والهبات والمبايعات والمنازعات والمشاجرات، والمسافر كذلك لايسافر إلا بورقة ويدفع عليها قدراً وكذلك المولود إذا ولد، ويقال له إثبات حياة، وغير ذلك كثير.

ثم إن المنادى نادى فى الأسواق على الناس بإحضار حجج أملاكهم إلى الديوان والمهلة ثلاثون يوماً، فإن تأخروا عن الثلاثين يضاعف المقرر عن التسجيل والإثبات.

ثورة القـــــاهرة
وبداية الفـاجعة ..

في يوم السبت عاشر جمادى الأولى عملوا الديوان المذكور، وأحضروا قائمة مقررات الأملاك والعقار، فجعلوا على الأعلى ثمانية «فرانسة» والأوسط ستة والأدنى ثلاثة، وما كانت أجرته أقل من ريال فى الشهر فهو معاف، وأما الوكائل والخانات والحمامات والمعاصر والحوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الاتساع وأحوال الرواج.

وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم، وألصقوها بالمفارق والطرقات، وأرسلوا منها نسخاً للأعيان، وعينوا المهندسين والخبراء لتمييز الأعلى من الأدنى، وشرعوا فى الضبط والإحصاء وطافوا ببعض الجهات، لتحرير القوائم وضبط أسماء الملاك.

ولما أشيع ذلك فى الناس، كثر لغطهم، واستعظموا ذلك والبعض إستسلم للقضاء فإنتبذ جماعة من العامة وتناجوا فى ذلك، ووافقهم عليه بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عواقب الأمور ولم يتفكر أنه فى القبضة مأسور، فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولاقائد يقودهم، وأصبحوا يوم الأحد متحزبين وعلى الجهاد عازمين، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح، وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية، ولهم صياح عظيم وهول جسيم، فذهبوا إلى بيت قاضى العسكر وتجمعوا وتبعهم ممن على شاكلتهم نحو الألف وأكثر، فخاف القاضى العاقبة وأغلق أبوابه وأوقف حجابه، فرجموه بالحجارة والطوب، وطلب الهرب فلم يمكنه الهروب.

كذلك إجتمع بالأزهر العالم الأكبر، وفى ذلك الوقت حضر «دبوى» بطائفة من فرسانه وشجعانه، فمر بشارع الغورية وعطف على خط الصنادقية، وذهب إلى بيت القاضى فوجد ذلك الزحام،

فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة وتلك الأخطاط بالخلائق مزحومة، فبادروا إليه وضربوه وجرحوه، وقتلوا الكثير من فرسانه.

فعند ذلك أخذ المسلمون حذرهم، وخرجوا يهرعون ومن كل حدب ينسلون، ومسكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة، [illegible] ب الفتوح وباب النصر وباب الشعرية وجهة البندقانيين وماحاذاها، ولم يتعدوا جهة سواها وهدموا مصاطب الحوانيت وجعلوا أحجارها متاريس، ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس.

وأما الجهات البرانية والنواحى الفوقانية، فلم يتحرك منهم أحد ولم يسارع، وكذلك شذ عن الوفاق. مصر العتيقة وبولاق، وعذرهم الأكبر. قربهم من مساكن العسكر.

ولم تزل طائفة المحاربين فى الأزقة متترسين، فوصل جماعة من الفرنساوية وظهروا من ناحية المناخلية، وبندقوا على متراس الشوائين وبه جماعة من مغاربة الفحامين، فقاتلوهم حتى أجلوهم وعن المناخلية أزالوهم، عند ذلك زاد الحال وكثر الرجف والزلزال، وخرجت العامة عن الحد وبالغوا فى القضية بالعكس والطرد، وامتدت أيديهم إلى النهب والخطف، فهجموا على حارة الجوانية، ونهبوا دور النصارى الشوام والأروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام، وأخذوا الودائع والأمانات وسبوا النساء والبنات، وأكثروا من المعايب ولم يفكروا فى العواقب، وباتوا تلك الليلة سهرانين وعلى هذا الحال مستمرين.

وأما الأفرنج، فإنهم أصبحوا مستعدين وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين، وأحضروا جميع الآلات من المدافع والقنابر

والبنبات، ووقفوا مستحضرين ولأمر كبيرهم منتظرين، وكان كبير الفرنسيس أرسل إلى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها، ومل من المطاولة، هذا والرمى متتابع من الجهتين وتضاعف الحال ضعفين، حتى مضى وقت العصر وزاد القهر والحصر، فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنبات على البيوت والحارات، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر وجرروا عليه المدافع والقنبر، وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين كسوق الغورية والفحامين.

فلما سقط على المتترسين ذلك ورأوه ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه، نادوا: ياسلام من هذه الآلام ياخفى الألطاف نجنا مما نخاف، وهربوا من كل سوق ودخلوا فى الشقوق، وتتابع الرمى من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الأركان، وهدمت حيطان الدور وسقطت فى بعض القصور، ونزلت فى البيوت والوكائل وأصمت الآذان بصوتها الهائل، فلما عظم هذا الخطب وزاد الحال والكرب، ركب المشايخ إلى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل، ويمنع عسكره من الرمى المتراسل، فلما ذهبوا إليه وإجتمعوا عليه، عاتبهم فى التأخير وإتهمهم بالتقصير، فإعتذروا إليه فقبل عذرهم وأمر برفع الرمى عنهم، وقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان فى المسالك وتسامع الناس بذلك، فردت فيهم الحرارة وتسابقوا لبعضهم بالبشارة وإطمأنت منهم القلوب وكان الوقت قبل الغروب، وإنقضى النهار وأقبل الليل وغلب على الظن أن القضية لها ذيل.

وأما أهل الحسينية والعطوف البرانية، فإنهم لم يزالوا مستمرين وعلى الرمى والقتال ملازمين، ولكن خانهم المقصود وفرغ منهم البارود، والأفرنج أثخنوهم بالرمى المتتابع بالقنابر والمدافع، إلى أن مضى من الليل نحو ثلاث ساعات وفرغت من عندهم الأدوات،

فعجزوا عن ذلك وإنصرفوا وكف عنهم القوم وإنحرفوا، وبعد هجعة من الليل دخل الإفرنج المدينة كالسيل، ومروا فى الأزقة والشوارع لايجدون لهم ممانع، كأنهم الشياطين أو جند إبليس، فهدموا ما وجدوه من المتاريس، ودخلت طائفة من باب البرقية ومشوا إلى الغورية، وكروا ورجعوا وترددوا ما هجعوا، وعلموا باليقين أن لا دافع لهم ولاكمين، ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول، وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة ونهبوا متاع الكتبة، وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه، وأصبح يوم الثلاثاء فإصطف منهم حزب بباب الجامع فكل من حضر للصلاة يراهم فيكر راجعاً ويسارع، وتفرقت طوائفهم بتلك النواحى أفواجاً، وإتخذوا السعى والطواف بها منهاجاً، وأحاطوا بها إحاطة السوار ونهبوا بعض الديار.

ثم رفعت القتلى من الإفرنج والمسلمين، ووقف جماعة من الفرنسيس ونظفوا مراكز المتاريس، وسارت أعمال القبض على قدم وساق وضيق على الناس الخناق، وأصبح يوم الأربع فركب فيه المشايخ أجمع، وذهبوا لبيت صارى عسكر يخاطبوه فى العفو ويلاطفوه، وإلتمسوا منه أماناً كافياً وعفواً ينادون به يكون شافياً، فوعدهم وعداً مشوباً بالتسويف وطالبهم بالتبيين والتعريف عمن تسبب من المتعممين فى إثارة العوام.

ثم إن الفرنسيس بعد طول قبض على الناس، كتبوا أوراقاً وألصقوها بالأسواق تتضمن العفو والتحذير من إثارة الفتنة، وأن من قتل من المسلمين فى نظير من قتل من الفرنسيس، وأستهل شهر

جمادى الثانية بيوم السبت، وفيه كتبوا عدة أوراق على لسان المشايخ، وأرسلوها إلى البلاد وألصقوا منها نسخاً بالأسواق، وصورتها: (نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ونبرأ إلى الله من الساعين فى الأرض بالفساد، نعرف أهل مصر المحروسة أن أفراداً من طرف الجعيدية وأشرار الناس، حركوا الشرور بين الرعية وبين العساكر الفرنساوية، بعدما كانوا أصحاباً وأحباباً سوية، وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين ونهبت بعض البيوت، ولكن حصلت ألطاف الله الخفية وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابارته، وإرتفعت هذه البلية لأنه رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة على المسلمين، ومحبة إلى الفقراء والمساكين، ولولاه لكانت العساكر أحرقت جميع المدينة ونهبت جميع الأموال وقتلوا كامل أهل مصر، فعليكم أن لاتحركوا الفتن ولاتطيعوا أمر المفسدين، ولا تسمعوا كلام المنافقين ولاتتبعوا الأشرار، ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول، الذين لايقرأون العواقب، لأجل أن تحفظوا أوطانكم وتطمئنوا على عيالكم وأديانكم، فإن الله سبحانه وتعالى يؤتى ملكه من يشاء، ويحكم ما يريد.

ونخبركم أن كل من تسبب فى تحريك هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم، وأراح الله منهم العباد والبلاد، ونصيحتنا لكم أن لاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وإشتغلوا بأسباب معايشكم وأمور دينكم وإدفعوا الخراج الذى عليكم. الدين النصيحة والسلام).

ومن هذه الأوراق ما صورته :

(نصيحة من علماء الإسلام بمصر المحروسة ، نخبركم يا أهل المدائن والأمصار من المؤمنين ، ويا سكان الأرياف من العربان والفلاحين ، أن إبراهيم بك ومراد بك وبقية دولة المماليك ، أرسلوا عدة مكاتبات ومخاطبات إلى سائر الأقاليم المصرية لأجل تحريك الفتنة بين المخلوقات ، وإدعوا إنها من حضرة مولانا السلطان ومن بعض وزرائه بالكذب والبهتان ، وبسبب ذلك حصل لهم شدة الغم والكرب الزائد وإغتاظوا غيظاً شديداً من علماء مصر ورعاياها ، حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم ويتركوا عيالهم وأوطانهم ، فأرادوا أن يوقعوا الفتنة والشر بين الرعية والعسكر الفرنساوية ، لأجل خراب البلاد وهلاك كامل الرعية ، وذلك لشدة ماحصل لهم من الكرب الزائد بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكة مصر المحمية ، ولو كانوا فى هذه الأوراق صادقين بأنها من حضرة سلطان السلاطين لأرسلها جهاراً مع أغوات معينين ، ونخبركم أن الطائفة الفرنساوية ، بالخصوص عن بقية الطوائف الأفرنجية ، دائماً يحبون المسلمين وملتهم ، ويبغضون المشركين وطبيعتهم ، أحباب لمولانا السلطان قائمون بنصرته ، وأصدقاء له ملازمون لمودته وعشرته ومعونته ، يحبون من والاه ويبغضون من عاداه ، ولذلك بين الفرنساوية والموسكوف غاية العداوة الشديدة ، من أجل عداوة الموسكوف القبيحة الرديئة ، والطائفة الفرنساوية يعاونون حضرة السلطان على أخذ بلادهم إن شاء الله تعالى ، ولا يبقون منهم بقية .

فننصحكم أيها الأقاليم المصرية أنكم لاتحركوا الفتن ولا الشرور بين البرية ، ولاتعارضوا العساكر الفرنساوية ، بشىء من أنواع الأذية ، فيحصل لكم الضرر والهلاك ، ولا تسمعوا كلام

المفسدين ولا تطيعوا أمر المسرفين، الذين يفسدون فى الأرض ولايصلحون، فتصبحوا على مافعلتم نادمين، وإنما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل الملتزمين، لتكونوا بأوطانكم سالمين وعلى أموالكم وعيالكم آمنين مطمئنين، لأن حضرة صارى عسكر الكبير أمير الجيوش بونابارته إتفق معنا على أن لاينازع أحداً فى دين الإسلام، ولا يعارضنا فيما شرعه الله من الأحكام، ويرفع عن الرعية سائر المظالم، ويقتصر على أخذ الخراج ويزيل ما أحدثه الظلمة من المغارم.

فلا تعلقوا آمالكم بإبراهيم ومراد، وراجعوا إلى مولاكم مالك الملك وخالق العباد، فقد قال نبيه ورسوله الأكرم «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها بين الأمم» عليه أفضل الصلاة والسلام).

* * *

علمـــــاء الفرنسيس

و

علـوم الأباليـــــس

من جملة علماء الفرنسيس «كفرلى» المسمى بأبى خشبة، وهو ذو رجل واحدة منذ فقد الثانية، فوضع عوضاً عنها خشبة، حصل منها مشيه، وهو يمشى بها بدون معين، ويصعد الدرج ويهبط منها أسرع من الصحيح، ويركب الفرس ويرمحه وهو على هذه الحالة، وهو من جملة المشار إليهم فيهم، والمدبر لأمور القلاع وصفوف الحروب، ولهم به عناية عظيمة وإهتمام زائد، وكان يسكن بالدرب الأحمر حتى وقعت الحادثة وقامت الفتنة، فهجمت العامة على داره ونهبوها وقتلوا منها بعض الفرنساوية وفر الباقون، فأخبروا من بالقلعة الكبيرة، فنزل منهم عدة وافرة، وقف بعضهم خارج الدار بعد أن ضربوا المزدحمين ببابها، ودخل الباقون فقتلوا من وجدوه بها من المسلمين وكانوا جملة كثيرة، وكان بتلك الدار شيء كثير من آلات الصنائع والنظارات الغريبة والآلات الفلكية والهندسية والعلوم الرياضية، وغير ذلك مما هو معدوم النظير، كل آلة لاقيمة لها عند من لايعرف صنعتها ومنفعتها، فبدد ذلك كله العامة وكسروه قطعاً، وصعب ذلك على الفرنسيس جداً وقاموا مدة طويلة يفحصون عن تلك الآلات، ويجعلون لمن يأتيهم بها عظيم الجعالات، فلما وقع ماجرى إنتقل «أبو خشبة» للسكنى بالأزبكية، ليكون فى حومة العسكر مبتعداً عن المنسر.

ثم أن الفرنسيس كتبوا عدة أوراق مطبوعة وألصقوها بالأسواق، مضمونها أنهم قصدوا يطيروا مركباً ببركة الأزبكية فى الهواء بحيلة فرنساوية، فكثر لغط الناس فى هذا كعادتهم، فلما كان اليوم الموعود، تجمع الناس والكثير من الإفرنج ليروا تلك العجيبة، فرؤي قماش فوق عمود قائم، فى وسطه مسرجة بها فتيلة مغموسة ببعض الأدهان، وتلك المسرجة مصلوبة بسلوك من حديد منها إلى الدائرة، وهى

مشدودة ببكر وأحبال، وأطراف الأحبال بأيدى أناس قائمين بأسطحة البيوت القريبة منها، فلما كان بعد العصر بنحو ساعة، أوقدوا تلك الفتيلة فصعد دخانها إلى ذلك القماش وملأه، فإنتفخ وصار مثل البكرة، وطلب الدخان الصعود، فلم يجد منفذاً، فجذبها معه إلى العلو، فجذبوها بتلك الأحبال مساعدة لها حتى إرتفعت عن الأرض، فقطعوا تلك الأحبال، فصعدت إلى الجو مع الهواء، ومشت هنيهة لطيفة ثم سقطت طارتها بالفتيلة، وسقط أيضاً ذلك القماش وتناثر منها أوراق كثيرة من نسخ الأوراق المبصومة، فلما حصل ذلك إنكسف طبعهم لسقوطها، ولم يتبين صحة ماقالوه من أنها على هيئة مركب تسير فى الهواء بحكمة مصنوعة، ويجلس فيها أنفار من الناس ويسافرون فيها إلى البلاد البعيدة، بل ظهر أنها مثل الطيارة التى يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح[١] . وفى نفس هذه الليلة، طاف من الفرنسيس أنفار بالأسواق ومعهم مقاطف بها لحوم مسمومة، فأطعموها للكلاب فمات منهم جملة كثيرة، فلما طلع النهار وجد الناس الكلاب مرمية وطرحى بالأسواق وهى موتى، فأستأجروا لها من أخرجها إلى الكيمان، وسبب ذلك أنهم لما كانوا يمرون بالأسواق فى الليل وهم سكوت، كانت الكلاب تنبحهم وتعدو خلفهم، ففعلوا بها ذلك وإرتاحوا هم والناس منها.

ثم إن الفرنسيس أفردوا للمدبرين منهم والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم، حارة الناصرية، حيث الدرب الجديد وما به من البيوت، وضعوا فى إحداها جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة، فيراجعون فيها

(١) والواضح أن هذه كانت من أولى تجارب الطيران بالبالون فى العالم، وقد جرت فوق أرض مصر وإن لم يقدر لها النجاح.

مرادهم، فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبــل الظهر بساعتين، ويجلسون فى فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب، على كراسى منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء من الكتب، فيحضرها له الخازن، فيتصفحون ويراجعون ويكتبون، حتى أسافلهم من العساكر.

وإذا حضر إليهم بعض المسلمين، ممن يريد الفرجة، لايمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم، وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر فى المعارف، يبذلوا له مودتهم ومحبتهم، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها صور الأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات، وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم فى أزمانهم، مما يحير الأفكار، وبعضهم يحفظ سوراً من القرآن ولهم تطلع زائد للعلوم ومعرفة اللغات، وإجتهاد كبير فى معرفة اللغة والمنطق، ويدأبون فى ذلك الليل والنهار، وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات وتصاريفها وإشتقاقاتها، بحيث يسهل عليهم نقل مايريدون من أى لغة كانت، إلى لغتهم في أقرب وقت.

وعند الفلكيين فى مكانهم المختص بهم، الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة، وآلات الإرتفاعات البديعة، العجيبة التركيب غالية الثمن، كل آلة منها عدة قطع، تركب مع بعضها البعض برباطات وبراريم لطيفة، بحيث إذا ركبت صارت آلة كبيرة وأخذت قدراً من الفراغ، وبها ثقوب ينفذ منها النظر إلى المرئى، وإذا إنحل تركيبها وضعت فى ظرف صغير، وكذلك نظارات للنظر فى الكواكب وأرصادها، ومعرفة مقاديرها وأجرامها،وإرتفاعاتها وإتصالاتها، وكذلك أنواع من الساعات التى تسير بثوانى الدقائق، غريبة الشكل غالية الثمن وغير ذلك.

وأفردوا مكاناً للمصورين، وأماكن للمهندسين وصناع الدقائق، وكذلك لعدة من الأطباء والجرايحية.

وأفردوا مكاناً لصناعة الحكمة والطب الكيماوى، وبنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة الوضع، وآلات تصاعيد الأرواح وتقاطير المياه وخلاصات المفردات وأملاح الأرمدة المستخرجة من الأعشاب والنباتات، وإستخراج المياة الجلاءة والحلالة، وحول المكان الداخل قوارير وأوان من الزجاج البلورى المختلف الأشكال والهيئات، موضوعة على الرفوف والسدلات، وبداخلها أنواع المستخرجات.

ومن أغرب ما تراه فى ذلك المكان، أن بعض المتقيدين لذلك يأخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فيصب منها شيئاً فى كأس ثم يصب عليها شيئاً من زجاجة أخرى، فيصعد من الكأس دخان ملون حتى ينقطع ويجف مافى الكاس، فتراه صار حجراً أصفراً تنظره يابساً، ثم إنه قد يفعل ذلك بمياه أخرى فتصير حجراً أزرقاً أو أحمراً ياقوتياً أو غير ذلك.

ويوجد غير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكيمة، تتولد من إجتماع العناصر وملاقاة الطبائع، مثل الفلكة المستديرة التى يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شىء كثيف ويظهر له صوت وطقطقة، وإذا مسك علاقتها شخص، ولو خيطاً لطيفاً متصلا بها، ولمس الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى، إرتج بدنه وإرتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده فى الحال برجة سريعة، ومن لمس هذا اللامس أو شيئاً من ثيابه أو شيئاً متصلا به، حصل له ذلك، ولو كانوا ألفاً أو أكثر، وللفرنسيس من غير طائفة العسكر، أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لاتسعها عقول الناس كافة، إلا من كان على درجة علمهم ومعارفهم.

نصيب للشـــــام
من العاصف بالأنام

أستهل شهر رمضان المعظم بيوم الأربعاء سنة ١٢١٣، وفيه أخذ بونابارته فى الإهتمام بالسفر إلى جهة الشام لحاقاً ببعض جنده وبطوائف عسكره الذين صاروا يخرجون فى كل يوم طائفة بعد طائفة.

ففى يوم السبت، إجتمع صارى عسكر بالمشايخ والوجهاء وتكلم معهم فى أمر خروجه للشام حيث يقطع دابر المماليك الفارين هناك ويمهد البلاد الشامية لأجل تأمين الطريق للقوافل والتجارات براً وبحراً، لعمار القطر وصلاح الأحوال، ومن جملة ما قاله «إننا نغيب عنكم شهراً ثم نعود، وعند عودنا نرتب النظام فى البلد والشرائع وغير ذلك، فعليكم ضبط البلد والرعية فى مدة غيابنا ونبهوا مشايخ الأخطاط والحارات، كل كبير يضبط طائفته خوفاً من الفتن مع العسكر المقيمين بمصر» فإلتزم له المشايخ بذلك، وكتبوا أوراقاً مطبوعة على العادة ألصقوها بالطرق.

وفى يوم الأحد ركب صارى عسكر الفرنسيس وخرج إلى العادلية متوجهاً إلى الشام وأبقى بمصر عدة من العسكر بالقلعة والأبراج التى بنوها على التلول.

ثم أنه ما أنقضى الخامس والعشرين من رمضان المعظم، إلا وجاء الخبر بأن الفرنساوية ملكوا قلعة العريش، وطاف رجل من أتباع الشرطة ينادى فى الأسواق «أن الفرنساوية ملكوا قلعة العريش وأسروا عدة من المماليك، وفى غد يعملون شنكاً ويضربون مدافع، فإذا سمعتم ذلك فلا تفزعوا». فلما أصبح يوم الأحد حضر المماليك المذكورين وهم ثمانية عشر مملوكاً يركبون الحمير متقلدين أسلحتهم، وصحبتهم نحو المائة من عسكر الفرنسيس أمامهم طبلهم،

وقد كان من خبر هؤلاء المماليك، أنهم كانوا مقيمين بقلعة العريش وصحبتهم نحو ألف عسكرى، فحضر لهم الفرنسيس الذين كانوا مقدمة الخارجين من مصر، فأحاطوا بالقلعة، فحاربهم المذكورين من داخل القلعة ونالوا منهم ما نالوه، فلما حضر صارى عسكر بجموعه ألح فى حصار القلعة، فأرسل من بالعريش إلى غزة يطلبون النجدة، فأرسلوا لهم نحو السبعمائة وعليهم قاسم بك، فلم يتمكنوا من الوصول إلى القلعة لتحلق الفرنساوية بها وإحاطتهم حولها، فنزلوا قريباً من القلعة، فكبستهم عسكر الفرنسيس بالليل فأستشهد قاسم بك وغيره وإنهزم الباقون، ولم يزل أهل القلعة يحاربون ويقاتلون حتى فرغ ما عندهم من البارود والذخيرة، فطلبوا عند ذلك الأمان فأمنوهم، ومن القلعة أنزلوهم، وذلك بعد أربعة عشر يوماً، ثم ذهب الفرنسيس إلى ناحية غزة.

وفى عصر يوم الأربعاء حضر جماعة من الفرنسيس، نحو الخمسة والعشرين، وهم راكبون الهجن وعلى رؤوسهم عمائم بيض فلما أصبح يوم الخميس عملوا الديوان وقرأوا المكاتبة التى حضرت مع الهجانة، وحاصلها أن الفرنسيس أستولوا على غزة وخان يونس.

وكان الفرنسيس لما ملكوا العريش قد كتبوا أوراقاً وأرسلوها إلى البلاد الشامية ونصها:

«فرمان عام موجة من أمير الجيوش إلى أهالى الشام قاطبة:

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين.

من طرف بونابارته أمير الجيوش الفرنساوية إلى حضرة المفتين والعلماء، وكافة أهالى نواحى غزة والرملة ويافا حفظهم الله تعالى، بعد السلام، نعرفكم أننا حررنا لكم هذه

السطور، نعلمكم أننا حضرنا فى هذا الطرف لقصد طرد المماليك وعسكر الجزار عنكم، وإلى أى سبب حضور عسكر الجزار وتعديه على بلاد يافا وغزة التى ما كانت يوماً ما من حكمه؟ وإلى أى سبب أيضاً أرسل عساكره إلى قلعة العريش؟ إنه بذلك هدد أراضى مصر، فلاشك كان مراده إجراء الحروب معنا.

ونحن حضرنا لنحاربه، فأما أنتم يا أهالى الأطراف المشار إليها، فلم نقصد لكم أذية ولا أدنى ضرر، فأنتم إستمروا فى محلكم ووطنكم مطمئنين ومرتاحين، وأخبروا من كان خارجاً عن محله ووطنه أن يرجع ويقيم، ومن قبلنا عليكم ثم عليهم الأمان الكافى والحماية التامة، فلا أحد يتعرض لكم فى مالكم وما تملكه يدكم، وقصدنا أن القضاة يلازمون خدمهم ووظائفهم على ماكانوا عليه، وعلى الخصوص أن دين الإسلام لم يزل معتزاً ومعتبراً والجوامع عامرة بالصلاة وزيارة المؤمنين، إذ كل خير يأتى من الله تعالى، وهو يعطى النصر لمن يشاء، ولايخفى عليكم أن جميع ما تآمر به الناس ضدنا يغدو باطلا ولانفع لهم به، لأن كل ما نضع به يدنا لابد من تمامه بالخير، والذى يتظاهر بالغدر يهلك، ومن كل ما حصل تفهمون جيداً أننا نقمع أعداءنا ونعضد من يحبنا، وعلى الخصوص من كوننا متصفين بالرحمة والشفقة على الفقراء والمساكين».

ولما أخذ الفرنسيس غزة، أرسلوا منشوراً بصورة الواقعة، فطبعوه نسخاً بصموها وألصقوا منها بالأسواق، وصورته:

«بسم الله الرحمن الرحيم، ولا عدوان إلا على الظالمين.

«نخبر أهل مصر وأقاليمها، أنه حضر فرمان مكتوب من غزة، من حضرة الجنرال إسكندر، خطاباً إلى حضرة سارى عسكر «دوجا» وكيل الجيوش بمصر، يخبره فيه بأن العساكر

الفرنساوية باتوا ليلة التاسع عشر من شهر رمضان فى «خان يونس»، وفى فجر تلك الليلة توجهوا سائرين إلى ناحية غزة، فكشفوا قبل الظهر بساعة عسكر المماليك وعسكر الجزار، جالسين تجاه «غزة»، فتوجه إليهم الجنرال مراراً مع عساكر الفرنساوية من خيالة ومشاة، مراده إغتيال عسكر المماليك وعسكر الجزار، فلما إنتبهوا له فروا هاربين، ووقع بينه وبين أطراف العساكر بعض مضاربة يسيره لم ينجرح فيها إلا شخصان من الفرنساوية، ومات عسكرى واحد ومات من عسكر المماليك والجزار ناس قلائل، وحين تشاغل سارى عسكر مراد بالمضاربة والمقاتلة، دخل حضرة سارى عسكر «كليبر» الذى كان حاكماً بالإسكندرية وكان ساكناً بالأزبكية إلى بندر غزة، وملكها من غير معارض له، ووجدوا فيها حواصل مشحونة بالذخائر من بقسماط وشعير وأربعمائة قنطار بارود، وإثنى عشر مدفعاً، وحاصلا كبيراً مملوءاً بالخيام الكثيرة وجللا وبنبات مهيئآت محضرات كصنعة الأفرنج.

هذا ما وقع لملكهم لغزة، وقد أخبرناكم على ما وقع فى كيفية ملك العريش سابقاً، فإستقيموا عباد الله وإرضوا بقضاء الله وتأدبوا فى أحكام مولاكم الذى خلقكم وسواكم. والسلام ختام).

ثم أنه لم يمض الأربعاء الموافق الثالث عشر من شوال، حتى حضر عدة من الفرنسيس وهم راكبون الهجن ومعهم عدة بيارق وأعلام، وأخبروا أن الفرنسيس ملكوا قلعة «يافا» وبيدهم مكاتبة من سارى عسكرهم، بالإخبار عما وقع، فلما كان يوم الخميس وإجتمع أرباب الديوان، قرئت الرسالة بعد تعريبها وترصيفها على هذه الكيفية، وهى عن لسان رؤساء الديوان إلى الكافة، وصورتها:

(بسم الله الرحمن الرحيم. سبحان مالك الملك يفعل فى ملكه مايريد. سبحان الحكم العدل، الفاعل المختار ذى البطش الشديد.

هذه صورة تمليك الله سبحانه وتعالى جمهور الفرنساوية لبندر «يافا» من الأقطار الشامية؛ نعرف أهل مصر وأقاليمها من سائر البرية، أن العساكر الفرنساوية إنتقلوا من «غزة» فى الثالث والعشرين من رمضان، ووصلوا إلى «الرملة» فى الخامس والعشرين منه، فى أمن وإطمئنان، فشاهدوا عسكر أحمد باشا الجزار هاربين بسرعة قائلين «الفرار. الفرار»، ثم أن الفرنساوية وجدوا فى «الرملة» ومدينة «لد» مقداراً كبيراً من مخازن البقسماط والشعير، ورأوا فيها ألفاً وخمسمائة قربة مجهزة، جهزها الجزار يسير بها إلى إقليم مصر، مسكن الفقراء والمساكين، ومراده أن يتوجه إليها بأشرار العربان من سطح الجبل، ولكن تقادير الله تفسد المكر والحيل، كان قاصداً سفك دماء الناس، مثل عوائده الشامية، وتجبره وظلمه مشهور، لأنه تربية المماليك الظلمة المصرية، ولم يعلم من خسافة عقله وسوء تدبيره أن الأمر لله، كل شئ بقضائه وتدبيره.

وفى السادس والعشرين من شهر رمضان، وصلت مقدمات الفرنساوية إلى بندر «يافا» من الأراضى الشامية، وأحاطوا بها وحاصروها من الجهة الشرقية والغربية، وأرسلوا إلى حاكمها، وتحيل الجزار أن يسلمهم القلعة قبل أن يحل به وبعسكره الدمار، فمن خسافة رأيه وسوء تدبيره، سعى فى هلاكه وتدميره ولم يرد لهم جواب وخالف قانون الحرب والصواب.

وفى أواخر ذلك اليوم السادس والعشرين تكاملت العساكر الفرنساوية على محاصرة «يافا» وصاروا كلهم مجتمعين،

وإنقسموا على ثلاثة طوابير، الطابور الأول توجه على طريق عكا بعيداً عن يافا أربع ساعات، وفى السابع والعشرين من الشهر المذكور أمر حضرة صارى عسكر الكبير بحفر خنادق حول السور لأجل أن يعملوا متاريس أمينة وحصارات متقنة حصينة، لأنه وجد سور يافا ملآنا بالمدافع الكثيرة ومشحوناً بعسكر الجزار الغزيرة.

وفى التاسع والعشرين من الشهر، لما قرب حفر الخندق إلى السور مقدار مائة وخمسين خطوة، أمر حضرة صارى عسكر المشار إليه أن تنصب المدافع على المتاريس، وأن توضع أهوان القنبر بإحكام وتأسيس، وأمر بنصب مدافع أخرى بجانب البحر لمنع الخارجين إلى مراكب المينا، لأنه وجد فى المينا بعض مراكب أعدها عسكر الجزار للهروب، ولاينفع الهروب من القدر المكتوب.

ولما رأت عساكر الجزار الكائنون بالقلعة المحاصرون، أن عساكر الفرنساوية قلائل فى رأى العين للناظرين، لمداراة الفرنساوية فى الخنادق وخلف المتاريس، غرهم الطمع فخرجوا لهم من القلعة مسرعين مهرولين، وظنوا أنهم يغلبون الفرنساوية، فهجم عليهم الفرنسيس وقتلوا منهم جملة كثيرة فى تلك الواقعة، وألجئوهم للدخول ثانية فى القلعة.

وفى يوم الخميس غاية شهر رمضان، حصل عند صارى عسكر شفقة قلبية وخاف على أهل «يافا» من عسكره، إذا دخلوا بالقهر والإكراه، فأرسل إليهم مكتوباً مع رسول، مضمونه: «لا إله إلا الله وحده لاشريك له. بسم الله الرحمن الرحيم، من حضرة سارى عسكر «إسكندر برتييه» أمين العسكر الفرنساوى إلى حضرة حاكم يافا، تخبركم أن حضرة

صارى عسكر الكبير بونابارته أمرنا أن نعرفك فى هذا الكتاب، أن سبب حضوره إلى هذا الطرف، إخراج عسكر الجزار فقط من هذه البلدة، لأنه تعدى بإرسال عسكره إلى العريش ومرابطته فيها، والحال أنها من إقليم مصر التى أنعم الله بها علينا، فلا يناسبه الإقامة بالعريش لأنها ليست من أرضه، فقد تعدى على ملك غيره، ونعرفكم يا أهل يافا أن بندركم حاصرناه من جميع أطرافه وجهاته، وربطناه بأنواع الحرب وآلات المدافع الكثيرة والجلل والقنابر، وفى مقدار ساعتين ينقلب سوركم وتبطل آلاتكم وحروبكم، ونخبركم أن حضرة صارى عسكر المشار إليه لمزيد رحمته وشفقته، خصوصاً بالضعفاء من الرعية، خاف عليكم من سطوة عسكره المحاربين، إذا دخلوا عليكم بالقهر أهلكوكم أجمعين، فألزمنا أن نرسل إليكم هذا الخطاب أماناً كافياً لأهل البلد والأغراب، ولأجل ذلك أخر ضرب المدافع والقنابر الصاعدة عنكم ساعة فلكية واحدة، وإنى لكم لمن الناصحين».

وكان هذا آخر جواب الكتاب، فجعلوا جوابنا حبس الرسول، مخالفين للقوانين الحربية والشريعة المطهرة المحمدية، وحالا فى الوقت والساعة هيج صارى عسكر وإشتد غضبه على الجماعة، وأمر بإبتداء ضرب المدافع والقنابر الموجب للتدمير، وبعد مضى زمان يسير تعطلت مدافع يافا المقابلة لمدافع المتاريس، وإنقلب عسكر الجزار فى وبال وتنكيس، وفى وقت الظهر من هذا اليوم إنخرق سور يافا وإرتج له القوم، ونقب من الجهة التى ضرب فيها بالمدافع من شدة النار، ولا راد لقضاء الله ولا مدافع. وفى الحال أمر حضرة صارى عسكر بالهجوم

عليهم، وفى أقل من ساعة ملكت الفرنساوية جميع البندر والأبراج، ودار السيف فى المحاربين وإشتد بحر الحرب وهاج، وحصل النهب فيها تلك الليلة.

وفى يوم الجمعة غرة شوال، وقع الصفح الجميل من حضرة صارى عسكر الكبير، ورق قلبه على أهل مصر، من غنى وفقير، الذين كانوا فى يافا، وأعطاهم الآمان وأمرهم برجوعهم إلى بلدهم مكرمين، وكذلك أمر أهل «دمشق» و «حلب» برجوعهم إلى أوطانهم سالمين، لأجل أن يعرفوا مقدار شفقته ومزيد رأفته ورحمته، يعفو عند المقدرة ويصفح وقت المعذرة، مع تمكنه ومزيد إتقانه وتحصينه.

وفى هذه الواقعة قتل أكثر من أربعة آلاف من عسكر الجزار بالسيف والبندق لما وقع منهم من الإنحراف، وأما الفرنساوية فلم يقتل منهم إلا القليل والمجروحون منهم ليسوا بكثير، بسبب ذلك سلوكهم إلى القلعة من طريق أمينة خافية عن العيون، وقد أخذوا ذخائر كثيرة وأموالا غزيرة وأخذوا المراكب التى كانت فى الميناء، وإكتسبوا أمتعة غالية ثمينة ووجدوا فى القلعة أكثر من ثمانين مدفع، كأن لم يعلموا أنه مع مقادير الله فإن آلات الحرب لاتنفع، فإستقيموا عباد الله وأرضوا بقضاء الله ولا تعترضوا على أحكام الله، وعليكم بتقوى الله وإعلموا أن الملك لله يؤتيه من يشاء، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

ثم إن الفرنسيس أخذوا «حيفا» وبعدها ركبوا إلى «عكا» وضربوا عليها وهدموا جانباً من سورها ثم جاءت الأخبار أنهم لم يتملكوها رغم محاصرتهم لها وإحاطتهم بها وذلك لأسباب ذكروها،

منها أن مراكب الإنجليز جاءت لعكا من البحر فمارت أهلها فبعد عنهم الجوع والوباء وما شابه من ملازمات الحصار، ومنها أن داء «الطاعون» وقع فى العسكر الفرنساوى المحاصر للمدينة وأنه يموت فى كل يوم خمسين أو ستين عسكرياً، ومنها ذيوع الخبر بورود مراكب الانجليز تجاه الإسكندرية ودمياط، وخوف الفرنساوية من أن يملك الإنجليز ظهارهم ومددهم ومرجعهم ومفرهم، فعادوا محافظة على البلد ومؤاثرة لسلامة المدد، وغير ذلك فى أسباب أذاعوها.

ثم أنه فى ليلة الجمعة العاشر من المحرم أرسلوا إلى المشايخ والوجهاء فإجتمعوا بالأزبكية وقت الفجر بالمشاعل وقت القابول وحضر الحكام بمواكب وطبول وزمور، ونوبات تركية وطبول تركية وطبول شامية، وذلك لأجل حضور صارى عسكر الكبير بونابارته عائداً من البلاد الشامية، ووصوله إلى أرض العادلية من أرض الشرق المصرية، فحضر الوكيل وقائمقام وأكابر عساكر الفرنسيس وركبوا جميعاً مع المذكورين من المشايخ وأهل البلد إلى جهة العادلية، فقابلوا صارى عسكر بونابارته هناك، وسلموا عليه ودخل معهم إلى مصر من باب النصر، بموكب هائل بعساكرهم وطبولهم وزمورهم وخيولهم وعرباتهم ونسائهم وأطفالهم، فى نحو خمس ساعات من النهار، إلى أن وصل إلى داره بالأزبكية، وإنفض الجمع، وكانوا قد ضربوا عدة مدافع عند دخولهم المدينة، وقد تغيرت ألوان العسكر القادمين وإصفرت ألوانهم وقاسوا مشقة عظيمة من الحر والتعب، حيث أقاموا على حصار عكا أربعة وستين يوماً، حرباً مستقيمة ليلا ونهاراً، وأبلى أحمد باشا الجزار وعسكره بلاء حسناً، وشهد له الخصم.

ولما وصل صارى عسكر الفرنساوية إلى داره بالأزبكية، تجمع هناك أرباب الملاهى والبهلوانات وطوائف الملاعبين والحواة والقرادين والنساء الراقصات والخلابيص، ونصبوا أراجيح مثل أيام الأعياد والمواسم، وإستمروا على ذلك ثلاثة أيام، وفى كل يوم من تلك الأيام يعمل الفرنسيس شنكاً وحراقات ومدافع وصواريخ، ثم إنفض الجمع بعد ما أعطاهم صارى عسكر دراهم وبقاشيش.



لم تلبث الأخبار أن وردت إلى مصر بقيام تحالفات جديدة فى أوربا، كان من شأنها أن تهدد كيان فرنسا ذاتها، بنظامها الثورى الوليد، مما حدا بنابليون بونابرت أن يتلمس السبل لأجل عودته إلى وطنه على جناح السرعة، حيث تتهيأ الفرص أمامه لإشتراك فعلى فى معارك حقيقية وذات أثر، بما يظهر مواهبه الدفينة ويمهد له إعتلاء درج المجد والخلود فى التاريخ العسكرى للبشرية كلها.

وسرعان ما إختفى من القاهرة قائد الحملة الشهير، لتصل بعد ذلك بأيام رسائل ومكاتبات تفيد وصوله الشاطىء الفرنسى ونجاته من السفن الإنجليزية المتربصة والتى تمخر عباب البحر متصيدة الفرص للقضاء عليه وعلى جيوشه المنعزلة على أرض مصر.

وفى وطنه.... لم يضع ثمة وقت حتى إعتلى على أكتاف الجماهير إمبراطوراً وحاكماً أوحد، وجلس على عرش قلوب كل الفرنسيين، الذين كانت إنتصاراته أساطير يتسامرون بها فى مجالسهم ومنتدياتهم، ولربما غفرت له تلك الانتصارات نكباته وسقطاته التى وقعت فيما بعد وبلغت ذروتها بهزيمته المحققة فى «واترلو».

ولكن - هنا فى مصر - ما الذى يمكن أن نستشفه من أحداث حملة نابليون فى الشرق؟ وما الذى يمكن أن نتدارسه ونستفيده من عبر التاريخ لذلك الزمن القريب؟ ماذا كان حال الشرق عموماً ومصر خاصة فى زمن وقوع تلك الحملة الفريدة؟

إن أول مايبادرنا هو تلك الحالة الشاذة من التخلف، التى كانت تعيشها مصر فى ظل الإمبراطورية العثمانية المضمحلة وسطوة المماليك التى لاتهتم بشىء ما فى الوجود - إلا إذا كان إجراء عمليات النهب والسلب على أحسن الوجوه، هو شىء ما يستحق الذكر!! وقد

ألقت حالة التخلف التى أظلت مصر بغياماتها على المصريين أنفسهم، فغدوا فى مواجهة الآلات الحديثة والنظم المستحدثة أشبه بالبلهاء، الأمر الذى بدا واضحاً من سرد وبيان ردود أفعالهم تجاه كل ما عاينوه من خلال معايشتهم لتلك الحملة ورجالها سواء العسكريين منهم أم العلماء، وهو ما بينه «الجبرتى» سافراً فى سطور تأريخه الذى تعرضنا لمجمله فى الصفحات السابقة.

ولا شك أن حالة الطمع والجشع، لاتكون مفاجئة لنا، إذا رأيناها تعم أولئك الذين يعانون التخلف والنهب المنظم والسلب الفريد، وهو ما لاشك صاحب المجتمع المصرى فى تلك الآونة المقيتة، مما إسترعى حتى نظر الفرنسيين أنفسهم.

فى دراسة ج.دى شابرول(١) ، وهو أحد العلماء الذين صاحبوا الحملة فى مصر، يذكر الباحث:

(لايمكنك أن تكتشف ما يعتمل فى نفس المصريين عن طريق ملامحهم، فصورة الوجه ليست مرآة لأفكارهم، فشكلهم الخارجى فى كل ظروف حياتهم يكاد يكون هو نفسه، إذ يحتفظون فى ملامحهم بنفس الحيدة وعدم التأثر، سواء حين تأكلهم الهموم أو يعضهم الندم، أو كانوا فى نشوة من سعادة عارمة، وسواء كانت تحطمهم تقلبات غير منتظرة أو كانت تنهشهم الغيرة والأحقاد أو يغلون فى داخلهم من الغضب أو يتحرقون للإنتقام، فليس ثمة فعل منعكس: إحمرار فى الوجه أو شحوب مفاجىء يستطيع أن يشى بصراع تلك العواطف العديدة التى تهزهم.

---

(١) أنظر فى ذلك موسوعة «وصف مصر» تأليف علماء الحملة الفرنسية، ترجمة الأستاذ زهير الشايب، الجزء الأول «المصريون المحدثون» دراسة فى العادات والتقاليد.

ويمكننا أن نلتمس أسباباً عديدة لهذا الجمود المذهل فى الملامح، وقد لايكون الطقس بعيداً عن هذه الحالة، فحيث يبدو الطقس على الدوام بنفس الشكل، فإنه ينقل إلى النفوس على نحو ما ثباته الدائم، ومع ذلك فإن الأسباب الرئيسية لذلك تكمن بالتأكيد فى شكل التربية، وفى الإعتقاد الخاطىء بكنه القضاء والقدر المنتشر بين كافة الناس، كما تعود فى النهاية إلى تعودهم أن يكونوا على الدوام عرضة لنزوات الطغاة الذين يعم ظلمهم البلاد، ففى كل يوم تنشأ أخطاء وبشاعات جديدة، تصبح الغفلة معها بالنسبة للمصريين - والشرقيين عموماً - نوعاً من الحيلة لمواجهة هذا العسف، فعندما يعاقب الإنسان على حركة أو بسبب نظرة أو أحياناً لمجرد الإشتباه فإنه يصبح وقد إكتسب مقدرة عميقة على الإستيعاب والتمثل، بحيث تصبح هذه الأمور الجائرة حالات إعتيادية. لذا فلا ينبغى علينا أن نبحث عن مصدر أخر لأسباب هذا النوع من التسليم المستعذب للألم، الذى يميز الشرقيين على وجه العموم، فالشكاوى والصيحات أمور لافائدة منها أمام إرادة الطغاة، ويعرف المصرى كيف يمشى وقد أغضبه الألم، وكيف يموت تحت عصا القواس دون أن يقول كلمة، فهذه إرادة الله والله أكبر ولا إله إلا الله... وتلك فقط هى الكلمات التى تأتى على لسانه عندما يبلغه نبأ نجاح لم يكن يؤمل فيه، وهى نفسها التى تفلت منه عندما يبلغه نبأ كارثة كبرى ألمت به).

(إن كل شىء فى هذا الشعب يقدم صورة من التناقض الواضح مع عاداتنا نحن الأوربيين، وهذا الإختلاف بلا جدال من صنع الطقس، ومن صنع الأنظمة المدنية والمعتقدات الدينية الخاطئة كذلك، كما أن غيبة القانون تكاد تشل مختلف ضروب الصناعة، فى الوقت الذى تتكفل فيه الحرارة الشديدة بتقليل نشاط القدرات الجسمية، ولنا أن نتسائل، لماذا يكلف الفلاح نفسه كبير عناء - فى

بلد كهذا ليست الملكية فيه سوى ضرب من الأوهام - كى يحسن من زراعاته، إذا كانت جهوده تلك لن تؤدى بالضرورة إلا إلى إثراء مستغليه، وإلى إنتزاع مغارم جديدة منه؟

إن الـ ـرى يعرف حقيقة وضعه، ويسير أموره بناء على ذلك، ويأتى الخوف ليضيف أثره إلى فعل الطقس، ليضعف من مقدرة جسمه بنفس القدر الذى تقف فيه معتقدات خاطئة عقبة تحول دون تقدم وتطوير أرضه، وهكذا يظل الغنى ينتهب اللذات بينما يظل الفقير يروى بحبات عرقه أرضاً خصبة معطاء، لكنه لايستطيع أن يحصل منها إلا على ما يقيم أوده.

ومن جهة أخرى يمكن القول بأن كل فروع الصناعات بلا إستثناء فريسة للإستبداد، وفى نفس الوقت فإن التجارة مزدهرة، وليس ذلك لأنها تلقى تشجيعاً من الحكومة، ولكن لأن موقع مصر وثراء منتجاتها يهيئان للتجارة معيناً لاينضب. وهذه الحرفة هى المجال الوحيد الذى يمكن أن يعد المصرى بمستقبل زاهر، فهى تقوده إلى الثروة فى بعض الأحيان، وهى فى هذا الصدد، الحسنة الوحيدة التى بقيت لهم، حيث أن صفتهم كمواطنين قد أغلقت أمامهم طرق المجد والمراكز الكبرى فى وطنهم، فأنظروا إذن، إلى أى حد تضاءل سكان واحدة من أجمل بقاع الأرض تحت هذه السيطرة الأجنبية وغير المشروعة للمماليك؟ إن الكوارث التى تنال منهم اليوم سوف تظل تثقل عليهم طالما ظلت هذه العصا الغليظة لمستغليهم غير الجديرين تدور عليهم، ولسوف يظل المصرى عبداً، بائساً، سلبياً، خاملا، تدور به دوامات الشك دون أن يفكر فى وضعه المحزن. ولربما تكون بلادته تلك هبة من القدر، إذ بفضلها لن يعذبه على الإطلاق ذلك الإحساس بالآلام والمخاطر التى تهدده بلا إنقطاع).

إن الاستبداد والظلم الذى عم مصر والذى عايشه المصريون فى نهارهم وليلهم، هو أول أسباب تفشى التخلف على أرض مصر بما مهد لسهولة إحتلالها من قبل جيوش الحملة الفرنسية عقب معارك كوميدية، حسمت دائماً قبل بداياتها وإنتهت بالفرار التكرارى للجند المذعورين.

وإنه ليكون من الخطأ أن نغفل دور الحكم العثمانى فى تلك الحالة برمتها، فإنه لضعف القوة الحاكمة - ولو كان حكمها إسمياً - أبلغ الضرر على الرعية الذين يصبحون والحالة هذه نهباً لأطماع وسطوة المتسلطين، بما يشيع قوانين الغاب فى المجتمع، ويقتل الطموح السامى، والأحلام الوطنية وينتهى إلى تلك الحالة من اللامبالاة والسلبية والخنوع والجشع فى الوقت ذاته، فتوئد المواهب الخلاقة وتطفو المذاهب الطفيلية، وتغدو مذاهب الرعاع عقيدة وتصبح صيحات الغوغاء فكراً، فيصير المجتمع كله إلى حطام وضلال مبين، ولعلنا فى ذلك الموضوع لانغفل ذكر الحكمة القائلة بأن العدل أساس الملك، وإن أول مظاهر العدل ألا ينهب أحد أو يسلب ماله وأن يسود القانون وأن تنفذ الحقوق وتؤدى الواجبات وألا يعلو أحد فى درجات المجتمع إلا على أساس يقر بقيامه ذلك المجتمع، وألا يدنى أحد فى درجات المجتمع إلا على إستحقاق لذلك، وأن تقوم الأمة كلها على ظاهر وألا تبطن فى صدور أبنائها شتى من المظاهر، وأن يقر العدل مستقراً ويذهب الظلم منكصاً، وأن يكون الناس مجتمعين وحول رايتهم غير متفرقين وعن أهدافهم غير حائدين وعن أعدائهم ليسوا بغافلين، لقيادتهم حافظين ولاغراضهم مستحفظين، يطلبون العلم سلاحاً ويعدون الفكر فلاحاً، يعبدون الله آناء الليل وأطراف النهار ويعمرون الأرض شوامخاً يعلون على الكفار، الآخرة لهم مطمعاً والدنيا ليست لهم مزهداً، فيستخرجوا

خير الأرض ليحققوا فلاح العرض، سبيلهم واحد وغرضهم نافذ، لايقولون إلا مايفعلون وليس عليهم من سبيل إلا ما شاء الله، وهو العزيز الحكيم.

* * *

محتويات الكتاب

رقـــم الإيداع ٩٣/٣١٠٢
I.S.B.N. 977-5034-04-3

المطبعة الإسلامية الحديثـة

٤٢(أ) ش دار السعادة حلمية الزيتون

القاهرة ت ٢٤٠٨٥٥٨

بسم الله الرحمن الرحيم . لا إله إلا الله
لا ولد له ولا شريك له في ملكه ، من أمير
الجيوش الفرنساوية صاري عسكر الكبير
بونابارته إلى كافة أهالي مصر الخاص والعام
نُعلمكم أن بعض الناس الضالين العقول
الغافلين بمصر أوقعوا الفتنة وال
الناس فأهلكهم